

## الفصل الثاني

### مصر والمذاهب الفنية

١

#### مصر

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم ، مطلةً عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية ، وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة في العالم القديم ، بل لقد استطاعت أن تلعب أقدم دور في تأسيس الحضارة الإنسانية ، وهو دور لا تزال أهراماته وصورح آثاره ماثلةً تحت أعيننا تعبر أروع تعبير عن مدى ما بلغته مصر من مدنية ، وقد أخذت تنشر هذه المدنية في الأمم المجاورة متخذةً ضمَّها إلى ممتلكاتها سبيلها إلى ذلك ، فضمَّت في أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور ، وتمضى أحقاب متطاولة ولبصر المكانة الأولى بين الأمم القديمة ثم يدور الزمن دورةً ، فيغزوها الرعاة الهكسوس ، ولكن سرعان ما تعود إلى نفسها فتطردهم منها ، وتخرج مرة أخرى إلى آسيا فتستولى على بعض أجزائها ، ولكن الزمن يدور دورة بل دورات فإذا مصر يغير عليها الحيثيون ثم الآشوريون ثم الفرس ، وتستمر تابعة لهم منذ عام ٥٢٥ ق.م ، حتى يخرجهم منها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق.م ، وبذلك تنتقل إلى حكم الإغريق ويختطُّ بها الإسكندر مدينة الإسكندرية ، كما يختطُّ بها بطليموس أحد قواد الإسكندرية دولة كبيرة استطاعت أن تنهض بها نهضة واسعة ، وهي دولة البطالسة التي أقامت في الإسكندرية داراً كبيرة للكتب ، كما أقامت داراً أخرى سمَّتها دار المتحف ، وكانت جامعة كبيرة أضاءت منها أنوار الثقافة اليونانية وخاصة بعد أن استولى الرومان على أثينا ، فإن كثيراً من أساتذتها فترّوا ومعهم ما تبقى من مصابيح تلك الثقافة إلى

الإسكندرية ، وقد رجعت هذه المصاييح نضىء متوهجة بمصر طوال عصر البطالسة ، وبعد البطالسة ، فإن جامعة الإسكندرية ظلت قائمة في عهد الرومان الذين استولوا على مصر منذ عام ٣١ م ، ونحن نعرف أن روما لم تحاول أن تبعث في مصر نهضة ثقافية إذ كانت تتخذها مخازن لما يلزمها من قمح ، وكم أثارَتْ فيها من حروب وسفكت من دماء وأزهقت من أرواح !

وتدور عجلة الزمن دورة فإذا عمرو بن العاص يأتي على جيش عربي كبير عام ٦٤٠ م متخذاً طريقه تلك الدروب والمسالك التي كانت تشق طور سيناء إلى مصر ، ويتعقب الروم في غير موقع ، ويستطيع - بما أوتي من قوة - أن يطردهم منها ، وبذلك تدخل مصر في عصر جديد هو عصر الإسلام والعروبة ؛ وهو عصر امتاز منذ أوائله بالعدل وأن يكون الناس سواسية أمام حاكمهم فلا يُضطهد أحدٌ في نفسه ولا في ماله ولا في دينه ، وقد أخذ المصريون يدخلون في دين الله أفواجاً ، وهاجر إليهم كثير من قبائل العرب ونزلوا ريف مصر ، فكان ذلك عاملاً من عوامل الاندماج بين المصريين والعرب . على أنه ينبغي أن لا يُفهم من ذلك أن المصريين تقبلوا الحكم العربي وخضعوا له خضوعاً ، بل كانوا كثيراً ما يثورون<sup>(١)</sup> ، وخاصة من أجل الضرائب التي كانوا يؤدونها ، ولولا أن موجة الإسلام كانت حادة ما استطاع العرب أن يستمروا بمصر ، فإن المصريين نزعوا عن دينهم أو قل نزعت كثرتهم عن دينها إلى الدين الجديد ، وحتى من بقي منهم على دينه أخذ يهجر لغته القبطية وما كان يعرف من اليونانية إلى اللغة العربية بحيث لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أسقف أشمون يشكو من انعدام اللسانين القبطي واليوناني في قبط مصر<sup>(٢)</sup> ، وما من ريب في أن ذلك يؤكد اندفاع مصر اندفاعاً شديداً نحو التعرب واتخاذ العربية لساناً لها ، فقد نزعت عنها ثيابها اللغوية القديمة واتخذت مكانها ثياباً عربية جديدة .

(٢) انظر كتاب سير البطارقة لساويرس (طبع بيروت) ص ٦ وهو مؤلف بعد عام ٤٠٠ هـ بقايل .

(١) Stanley, Lane-pool, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 28, 32

## شخصية مصر

من يبحث مصر في مختلف عصورها يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائماً تظل كما هي في كل حكم وفي كل عصر . وهذا المعبد الكبير أتاحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش معيشة مستقلة في عاداته وتقاليده ، ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عززلتاه عن الاختلاط والانسياح في الأمم الأخرى ، وحقاً قد تمرّ بهذا المعبد العظيم عاصفة هوجاء فتفتّح أبوابه ويدخل جيش فاتح على رأسه قائد مظفر ، ولكن سرعان ما يذوب هذا الجيش ويفنى في أبناء المعبد وطقوسهم وعاداتهم . وفي هذا المعبد يجرى نهر النيل نائماً لنعابه من حوض إلى حوض في أوان « يدّر حيلابه ، ويكثر فيه ذبابه » ، وحول هذا النهر يعيش المصريون من عصر الفراعين إلى العصر الحديث « يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحبّ ، يرجون بذلك الثماء من الربّ » ، وقد ظلوا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل يعملون على وتيرة واحدة ، ينقلون الماء من هنا إلى هناك بهذه الأواني من الطّوابير وما يتصل بها ، يبعثون الحياة في وديان مصر وأحواضها « فبينما مصر لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضرة ، فإذا هي ديباجة رَقْشَاء » . وهكذا مصر دائماً : كتاب أحكمت سطوره ونقوشه منذ أقدم الأزمنة ، وما تزال هذه السطور والنقوش واضحة غير مطموسة ، فالناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون في وديان النيل في تلك المياة المشبعة بالطمس ، يديرون آلات لا تكاد تختلف في شيء عن آلات أجدادهم ، وإنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم . ومن ثمّ كانت مصر بلداً محافظاً يحتفظ بشخصيته ومقوماتها على مر العصور ، وقد كان لذلك أثر جليل

في تاريخ مصر ، فإنها استطاعت أن تحتل الفتوح المختلفة ، وأن تصمّد لها دون أن يُطمَس شيء مهم من معالمها لما لديها من امتناع عن التحول وقدرة على الإساعة والهضم ، فإذا هي تهضم ما يدخل إليها من عناصر أجنبية ، هضمت قديماً الرعاة الهكسوس وما دخلها من عناصر الأشوريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان ، بل لقد هضمت عناصر العرب أنفسهم مع اتساع تأثيرهم فيها من الوجهتين الدينية واللغوية .

وهذه المحافظة في مصر وما يطوى فيها من مقدرة على الاستمرار ليس معناها أن مصر تستعصي على العناصر الثقافية عند الأمم الأجنبية ، فكثيراً ما تقبّلت قديماً وحديثاً هذه العناصر وحاولت أن تهضمها وتعيدها في صورة جديدة تلائمها ، ولعل أوضح ما يفسر ذلك ما كان من استقبالها في الإسكندرية للثقافة اليونانية ، فقد استطاعت أن تستوعبها ، وأن تنفذ من ذلك الاستيعاب إلى مذهب جديد في الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب يعتمد على العناصر اليونانية من جهة والعناصر المصرية وما يتصل بها من معتقدات من جهة أخرى . ولم تحاول مصر الاتصال بثقافة اليونان الذين فتحوها فقط ، بل نراها تحاول الاتصال بثقافات أخرى لم يكن لأهلها نفوذ سياسي بها ، ولعل خير مثال لذلك اتصالها بالثقافة السريانية في أثناء الحكم الروماني ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الطب ، يقول بتار : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب ، وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرّس في الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزوّ الفرس لها »<sup>(١)</sup> ومن هذه اللغة تُرجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرن القس في الطب<sup>(٢)</sup> ، ولم تنس مصر لغتها القبطية ، فقد كانت تتخذها في طقوسها الدينية كما كتبت

(١) فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) (٢) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع  
ليبرزج ص ٣٢٤ .  
(طبع لجنة التأليف) ص ٨٤ .

بها بعض كتابات تاريخية<sup>(١)</sup>. على أنه ينبغي أن نعرف أن جامعة الإسكندرية اليونانية هجرها أساتذتها إلى مدرسة أنطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذلك لا نسمع بعد عصره عن خليفة أو أمير يطلب علماء الإسكندرية على نحو ما طلب خالد بن يزيد بن معاوية جماعة منهم لترجمة ما عندهم من كتب في الكيمياء<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك فإغلاق هذه الجامعة إنما اقتصر تأثيره على الجانب الإغريقي ، أما الجانب السرياني وما يتصل به من الطب فقد استمر في مصر ، إذ كان العلماء السريان منبئين في الأديرة ، فكان يقصد الطلاب إليهم ، وكان الطب يتوارث فيهم ، ولذلك ظلت مصر تشتهر بأطبائها حتى عصر متأخر ، ومن أشهروا فيه سعيد بن توفيل النصراني طبيب ابن طواون<sup>(٣)</sup> ، وسعيد بن البطريق : « وكان طبيباً نصرانياً من أطباء فسطاط مصر . . وقد عيّن بطريقاً على الإسكندرية سنة ٨٣٢٨ هـ ، وله كتب في الطب والجلد »<sup>(٤)</sup>.

ومهما يكن فقد استمرت بمصر بقايا من التراث اليوناني ، حتى بعد إغلاق جامعة الإسكندرية ، إذ ظلت بها رواسب من علم إقليدس في الفلك ومن علم الكيمياء ومن الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من غنوسطية ودراسات لاهوتية ، وما من ريب في أن الحركة الصوفية التي ظهرت بمصر في القرن الثالث وعلى رأسها ذو النون المصري الإخيمي كانت تتأثر تأثيراً مباشراً بما بقي من هذه الجامعة ، وخاصة إذا عرفنا أن أول انبعاث لهذه الحركة كان في الإسكندرية عام ٢٠٠ هـ<sup>(٥)</sup> ، وأيضاً فهم يقولون إن ذا النون المصري كان عالماً في الكيمياء ، وقد ردوا كثيراً من آرائه إلى مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكما تأثر التصوف بالأفلاطونية والغنوسطية الإسكندرية تأثر كذلك التشيعُ بهما في العصر الفاطمي ولعله من أجل ذلك كان الفاطميون يدعون إلى التشيقف بالثقافة الفلسفية ،

(١) فتح العرب لمصر ص ٨٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (طبع مصر)

ص ٣٣٧ ، ٥٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة طبع دار الكتب ١٧/٣ .

(٤) طبقات الأطباء ٨٦/٢ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ١٦٠ وانظر

أيضاً ص ٤٤٠ .

إذ كانت هذه الثقافة فعلاً مؤثرة آثاراً عميقة في عقيدتهم الشيعية .

وقد سارعت مصر بعد إسلامها إلى العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ، كما سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية من نحو وعروض ولغة وأدب ، فكان منها اللغويون والنحويون ، كما كان منها الفقهاء والمحدثون والقراء ، وأيضاً كان منها المؤرخون الذين أرخوا لفتوحها . وكان جامع عمرو بن العاص هو الجامعة الكبرى التي تدرس فيها العلوم الإسلامية ، وهي دراسة كانت تتساق نحو تقليد بغداد في علمها وما وصلت إليه في الدراسات المختلفة ، ومصر من هذه الوجهة تشبه الأندلس تمام الشبه ، فكما أن الأندلس قلدت المشرق في علومه الدينية واللغوية ، أو قل بعبارة أدق إنها نقلت هذه العلوم منه ، كذلك مصر فلإنها اعتمدت على النقل أكثر مما اعتمدت على الابتكار ، ولم يكن هذا شأنها فقط في العلوم الدينية واللغوية ، بل كان شأنها أيضاً في حركتها الأدبية ، فلإنها كانت تصوغ نماذجها على مثال النماذج البغدادية ، إذ كان الأدباء يعجبون في مختلف الأقاليم العربية بهذه النماذج ، وهو إعجاب طبع أدبهم من شعر ونثر بطابع أصيل من التقليد ، وسرى هذا الطابع يستمر في جميع ما أنتجت مصر من نثر في أثناء عصورها الوسيطة ، ومن ثم لم تستطع أن ترفد مجرى النثر العربي العام بجدول جديد تتميز مياحه من مياه المجرى العام ، فليس هناك مذهب جديد ، وإنما الذي هناك دائماً هو التقليد والمحاكاة على نحو ما رأينا في الأندلس ، وكان ذلك سمة الأقاليم جميعاً ، فهي تقرأ نماذج المشرق التي صنعت داخل مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، ثم تحاول أن تصوغ نماذج مشابهة لتلك التي تقرأها ، ذاهبة أحياناً مذهب أهل الصنعة ، وأحياناً أخرى مذهب أهل التصنيع أو التصنع في غير نسق ولا نظام مطرد ، وإن الإنسان ليعجب إذ يرى هذه المذاهب التي صنعها المشرق تكنسح أمامها جميع الحدود القومية في الأقاليم العربية دون أن يعترضها حاجز أو يقف أمامها عائق ، ومن العيب حقاً أن نبحث عن مذهب جديد يُحدثه أي إقليم ، وكأنما ضاقت أبواب التجديد أمام الأدباء فهم

يُؤَلِّقُون وجوههم دائماً شطر بغداد يتعبدون أمثالها ويحتمنون على ما أخرجته من نماذج في الشعر والنثر .

## ٣

## النثر المصري

إذا أخذنا نبحت عن وثائق الكتابة الأدبية في مصر في أثناء الفترة الأولى ، ونقصد فترة الولاية من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد نتبين شيئاً واضحاً ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن في مصر كتابة ولا كتّاب ، فالمقرئ يقول : « لما كانت مصر إمارة كان بها ديوان البريد . ويقال لمتولّيه صاحب البريد . . وهو الذي يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كتّاب يُنشدون عنهم الكتب والرسائل »<sup>(١)</sup> ، وبجانب ديوان البريد الذي يشير إليه المقرئ كان بمصر ديوان للخراج ، وكانوا يكتبون فيه أولاً باليونانية ثم كتبوا فيه منذ عهد عبد الملك أو ابنه الوليد بالعربية ، ومن يستعرض ما جاء في كتاب الوزراء والكتّاب للجيشياري عن دواوين مصر وكتّابها في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي يلاحظ أن الكتاب الرسميين الذين يتصلون بديوان البريد وديوان الخراج كانوا غالباً من غير المصريين ، فهو يروي أن عبد العزيز بن مروان والي مصر كان يكتب له يناسُ بن حُمّايا من أهل الرُّها<sup>(٢)</sup> ، كما يروي أن سليمان بن عبد الملك ولّى رجلاً من موالى معاوية الخراج بمصر<sup>(٣)</sup> . هذا في العصر الأموي ، أما في العصر العباسي فيروي الجيشياري أن هرون الرشيد ولي على مصر عمر بن مهران كاتب الخيزران ، فأخذ معه رجلاً استكتبه على الديوان<sup>(٤)</sup> ، وكذلك يروي أن الخصب استكتب جابر بن داود جدّ البلاذري

(١) خطط المقرئ طبع بولاق ٢٢٦/٢ . (٣) نفس المصدر ص ٥١ .  
 (٢) الوزراء والكتّاب للجيشياري ص ٣٤ . (٤) الوزراء والكتّاب ص ٢١٧ .

المؤرخ المشهور<sup>(١)</sup> ، وهو فارسي الأصل ، ولما ولي عبد الله بن طاهر مصر في عصر المأمون اصطحب معه إسحق بن أبي ربيع ليكون كاتبه ، وفيه يقول بعض الشعراء<sup>(٢)</sup> :

أرى كاتباً جاهُ الكتابةَ بينَ عليه وتأديب العراق مُنيرُ  
له حركاتٌ قد تشاهد أنهُ عليمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

وقد سقنا ذلك لندل على أن مصر لم تستفد كثيراً في عهد الولاة من حيث النشاط الأدبي في باب الكتابة الرسمية ، إذ كانت تستورد كُتَّاب دواوينها من الخارج ، ومن أجل ذلك لم يكن لها نشاط واضح في هذا الجانب إلا ما رواه المقرئ من أنه كان لبعض أمرائها كُتَّاب ينشئون عنهم بعض الرسائل ، ومن هؤلاء الكُتَّاب عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد<sup>(٣)</sup> ، ولعل مما يتصل بذلك ما يقال من أنه كان لعبد الحميد الكاتب عقبٌ يسكنون مصر منذ قُتل في موقعة الزَّاب وكانوا يكتبون لأمرائها<sup>(٤)</sup> . على أنه ليس عندنا نصوص لهذه الطائفة من كتاب الأمراء ، ولا للطائفة الأخرى من كتاب الولاة ، ومن ثمَّ كنا لا نُبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية في عصر الولاة غير أننا لانصل إلى عصر ابن طولون الذي استقل بها ، وأسس فيها دولة كان لها شأن مهم في القرن الثالث للهجرة حتى نجد مصر تبدأ عصرًا جديدًا في تاريخ النثر الأدبي ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل ، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ في دمشق وبغداد حول دواوين الرسائل ، يقول صاحب صُبْح الأعشى : « لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في مدة نواب الخلفاء صرفُ عناية تقاصرُ عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦ والفهرست (٣) الوزراء والكتاب ص ٥٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

ص ١٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٩٣ .

عن النواب في نياتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات، فلذلك لم يقع مما كُتِبَ منها ما تتوافر الدواعي على نقله، وتنصرف الهمم لتدوينه، مع تطاول الأيام وتوالي الليالي . . . ولما أخذ أحمد بن طولون في تدبير الملك وإقامة السلطنة بالديار المصرية، وشمخ بها سلطانه، وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عبيد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره<sup>(١)</sup>، ولم يكتب ابن طولون بابن عبيد كان، فقد جاء بجماعة من كتاب العراق تعاونه مثل أبي عبيد الله الواسطي<sup>(٢)</sup> ويعقوب بن إسحق<sup>(٣)</sup> وأحمد بن أيمن، وكان يكتب في حدائته للعباس بن خالد البرمكي<sup>(٤)</sup> وضمَّ إلى هؤلاء الكتاب آخرين من كتَّاب مصر وعلى رأسهم الحسن بن محمد بن أبي المهاجر وإخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى، وكلهم من عقب عبد الحميد الكاتب<sup>(٥)</sup>. وبذلك كله نهض ابن طولون بديوان الرسائل في مصر نهضة عظيمة، وهي نهضة جعلت بعض كتَّاب العراق يهاجر إلى مصر طلباً للتوظيف في هذا الديوان على نحو ما يحدثنا ياقوت عن إسحق بن نصير<sup>(٦)</sup> الكاتب البغدادي، فقد قدم على ابن عبد كان رئيس الديوان والتمس منه التصرف ولم يزل معه إلى أن توفي، فاستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمئة دينار في الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار<sup>(٧)</sup>. ويذهب عصر الطولونيين وتدخل مصر مرة أخرى في عصر الولاة فيضعف بها ديوان الإنشاء ويستمر على ضعفه في عصر الإخشيديين، إذ لا نجد لمصر - على عهدهم - كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى ابن عبد كان الذي كان يباهى به ابن طولون ككتَّاب بغداد

(١) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ٢٨/١١ . (٥) الوزراء والكتَّاب ص ٨٢ .  
 (٢) المكافأة لأحمد بن يوسف طبعة (وزارة التربية والتعليم) ص ٢٠ .  
 (٣) المكافأة ص ٥٦ .  
 (٤) نفس المصدر ص ٩١ ، ١٦٧ .  
 (٦) هكذا في ياقوت، وفي صبح الأعشى وحسن المحاضرة والنجوم الزاهرة : نصر .  
 (٧) انظر معجم الأدباء ٦/٨٥ .

والعراق ، ونحن نقف عند هذا الكاتب وقفة قصيرة لنطلع على ما كانت تخرجه مصر في عهده من نماذج الكتابة الفنية .

### ابن عبد كان

هو أحمد بن محمد بن مودود<sup>(١)</sup> ، وقد نال شهرة واسعة في عصره وبعد عصره ، ولكن كُتّاب التراجم لم يهتموا به ، وأغلب الظن أن ابن طولون اصطحبه معه من بغداد ، فاسمه يدل على أنه فارسي ، إذ الألف والنون تأتي في الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتي الكاف للتصغير ، وإذا فتعبّد كان تقابل في العربية عبّيدى ، وقد أحضره ابن طولون إلى مصر وبقى بها حتى وفاته ، ويظهر أنه توفي بعد سيده ، إذ تتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لحمارويه بن أحمد بن طولون<sup>(٢)</sup> . وعُرف ابن عبّيد كان بجودة أدبه وفنه ، قال صاحب الفهرست : « كان بليغاً مترسلاً فصيحاً ، وله ديوان رسائل كبير »<sup>(٣)</sup> ، ويقول ياقوت : « كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة »<sup>(٤)</sup> ، وقد أشاد به صاحب صبح الأعشى في غير موضع من كتابه ، ومما قال فيه : إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبد كان ، ويقولون : « بمصر كاتب ومحرر ليس لأمر المؤمنين بمدينة السلام مثلهما »<sup>(٥)</sup> ، ومر بنا في غير هذا الموضع أن صاحب بن عباد سأل رجلاً من أهل الشام : رسائل من تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان ، قالى : ومن ؟ قال : رسائل الصابي ، وفي اقتران ابن عبد كان ، وهو من كتاب القرن الثالث ، بالصابي وهو من كُتّاب القرن الرابع قرن

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ .

(٤) معجم الأدباء ٦/٨٥ .

(٥) صبح الأعشى ٣/١٧ .

(١) صبح الأعشى ١/٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ١/٩٥ والنجوم الزاهرة

٣٣٦/٧ رحمن المحاضرة للسيوطي (طبع مطبعة

المصوغات) ٢/١٤٦ .

التصنيع ما يجعلنا نقف - من بعض الوجوه - على مبلغ مكانته الأدبية . على أن للمسألة وجهاً آخر ، وهو أن الناس في النصف الثاني من القرن الرابع كانوا يعتقدون بابن عبدكان ورسائله مع أننا نعرف أنهم لم يكونوا بأبهون لغير السجع والبيديع في تلك العصور ، وفي ذلك ما يجعلنا نحس شيئاً من الصلة بين آثار ابن عبدكان وآثار أصحاب التصنيع من أمثال الصابى ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج فإن من يرجع إلى رسالته التي كتبها عن ابن طولون إلى ابنه العباس ، وكان قد شغّب عليه بالإسكندرية أثناء رحلة له بالشام ، وهي الرسالة التي احتفظت له بها المصادر القديمة يجده فيها يُعنى بالسجع عناية شديدة ، وحقاً قد يتخفف منه ولكنه يلتزمه في أكثر جوانب الرسالة مما يجعلنا نؤمن بأنه كان يعتمد عليه اعتماداً دقيقاً في صنع رسائله ، وانظر إليه كيف يسهل تلك الرسالة (١) :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لظوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس في فتنته ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ، سلام على كل منيب ومستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول الفوت والندم . . . أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تُثير المدينة بقرنها ، والنحلة يكون حنقها في جناحها ، وستعلم هبيلتك الهوابل - أيها الأحمق الجاهل ، الذى تُنتى على الغنى عطفه ، واغترت بضجاج المواكب خلفه - أى مورد هلكة بإذن الله توردت إذ على الله عز وجل تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلاً (قرية كانت آمنة مطمئنة يأتها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً في إنابتك ، وتأميلاً لفيئتك ، فلما طال في الغنى انهماكك ، وفي غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعدة تُلين

كبدك ، ولا التذكير يُقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلاً ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحللاً . . . واعلم أن البلاء - بإذن الله - قد أظلك ، والمكروه - إن شاء الله - قد أحاط بك ، والعساكر - بحمد الله - قد أتنك كالسيل في الليل ، تؤذتك بحرب وويل ، فإنما نُقسم ، ونرجو أن لا نجور ونظلم ، أن لا ننسى عنك عسانا ، ولا نُؤثر على شأنك شأنًا ، فلا تتوقل ذروة جبل ولا تلج بطن واد إلا تبغناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أمتت منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرّخاء ما جهلت ، وتود أنك هُبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرى لك الليل عن صبحه ، ويستفرك الحق عن متحضه ، فتتظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بجبال غرور ، متمادياً في مقايح أمور . من عمق لا ينام طالبه ، وبتغنى لا ينجو هاربه ، وغدر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودى قتيله . وتقف على سوء رويّتك ، وعظم جريرتك ، في تركك قبول الأمان إذ هو لك مبدول ، وأنت عليه محمول ، وإن السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح ، وتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً . وانقذت إليه منتصحاً .

وأنت ترى ابن عبد كان في هذه القطعة يعنى بموازنة عباراته موازنة تخرج به إلى السجع فإن تركه فإلى الأزواج . وهذا يدل على أنه كانت تتأصل عنده رغبة في إحكام عباراته وتنسيقها تنسيقاً بديعاً . وهو تنسيق كان يعتمد دائماً على الملاءمات الصوتية . وكأنما كان أساس الكتابة الفنية في رأى ابن عبد كان هو الموسيقى وإحسانها . وقد طبعت هذه الموسيقى أسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة . وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى . وليس ذلك كل ما يميز صناعة ابن عبد كان ، فهناك

جانب تظهر بعض شياته في تلك القطعة ، وهو جانب التصوير . والحق أن ابن عبدكان من أهم الكتّاب الذين ظهروا في القرن الثالث لا في مصر وحدها ، بل أيضاً في بغداد نفسها ، وهو حقاً ليس مصرياً وإنما هو بغدادى ، ولكن مصر هى التى ظفرت به ، وقد استطاع أن يحقق لها كثيراً من أعلامها فى منافستها لبغداد على عهد ابن طولون . وليس كل ما يذكر لابن عبدكان فى هذا الباب هو صورة كتابته وما بها من فن وجمال ، بل إن هناك وجهاً آخر لعمله ، وهو أنه وضع للكتاب فى مصر رسوم الكتب وبماذا تنتهى وكيف تُعَسَّنون<sup>(١)</sup> . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن ظهوره بمصر كان طفرة ، وربما كان اعتباره تممياً لحلقة بغدادية أدق من اعتباره ابتداء لحلقة مصرية ، فإن مصر تراجعت بعده فلم تستطع أن تخرج كاتباً ممتازاً فى عصر الولاة بعد الطولونيين ولا فى عصر الإخشيديين ، وكأنها أبتت الكاتب الممتاز لعصر الفاطميين .

## ٤

## الفاطميون ونهضة النثر المصرى

ما نكاد نشرف على النصف الثانى من القرن الرابع حتى تبدأ مصر صفحة جديدة ، وهى صفحة زاوية من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والفنية ، فقد دخلها الفاطميون فاتحين عام ٣٥٤ هـ وأسسوا فيها إمبراطورية عظيمة دانت لها شعوب أفريقيا الشمالية وبلاد الشام والعرب وخطب باسمهم فى العراق وبغداد نفسها<sup>(٢)</sup> وحتى بلوخستان كانت تخضع لهم ، فابن حوقل يقول : إن أهلها كانوا يرسلون للخليفة الفاطمى بأموال وذنخائر كثيرة<sup>(٣)</sup> ، ويقول ناصر خسرو الذى زار مصر عام ٤٣٩ للهجرة : إنه رأى بالقاهرة طائفة من أبناء الملوك والأمراء

(١) انظر صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها . (٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدن)

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٤/٥ وما بعدها . ص ٢٢٢ .

الذين جاؤوا من أطراف العالم مثل أبناء ملوك جورجيا وملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان<sup>(١)</sup> ، وأكبر الظن أن هؤلاء الأبناء كانوا بعوناً لبلادهم تريد أن تنهل من منابع الثقافة الشيعية بمصر . وكل ذلك يؤكد عظم المكانة التي احتلتها مصر في العصر الفاطمي ، وهي مكانة أهل لها نظام الدعاة الذي أقاموه ، فقد كان لهم دعاة منبثون في كل صقع وفي كل ناحية يدعون لهم ، يقول المعز في كتاب أرسله إلى أحد قواد القرامطة : « ما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاة يدعون إلينا : يدلُّون علينا ، ويأخنون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينسندون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن »<sup>(٢)</sup> .

استطاع الفاطميون أن يرتفعوا بالقاهرة في عصرهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة بغداد في أيام مجدها الأولى ، فقد بنوا فيها القصور الفخمة والمساجد الضخمة وزرکشوا هذه القصور والمساجد بضروب مختلفة من الزخرف لا نعد إذا قلنا إنها كانت منتزعة من حياتهم التي كانت تقوم على التأنق وهو تأنق ساعد عليه ثراء مصر الذي يبالغ المؤرخون في وصفه ، ولعل مما يدل عليه من بعض الوجوه ما يقوله ابن ميسر من أن خراج دمياط وتينيس والأشمونين كان يزيد على مائتي ألف دينار في العام<sup>(٣)</sup> ، ويقول ناصر خسرو : إنه رأى بالقاهرة رباطاً يحصل منه كل شهر ألف دينار ، وأن بالقاهرة مائتي رباط أكبر منه أو مثله<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن هذا الثراء كان يعم الشعب وخلقاءه ووزراءه ، يقول ناصر خسرو : « رأيت في مدينة مصر نصرانياً من سراتها قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تُعدَّ ، وحدث في سنة ما أن كان الشيل ناقصاً وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا النصراني ، وقال ، ليست السنة رخاء ،

(١) سفرنامه لناصر خسرو ( الطبعة العربية ) (٣) أخبار مصر لابن ميسر ( طبع أوروبا )

ص ٤٦ .

طبع لجنة التأليف ص ٥٣ .

(٢) الاتعاظ للمقريزي ( طبعة بوتتر ) (٤) سفرنامه ص ٦٣ .

والسلطان مشفق على الرعية ، فأعطى ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرصاً ، قال النصراني : أسعد الله السلطان الوزير ، إن لدى من الغلة ما يمكنني من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات . وكل من يستطيع الحكم يدرككم ينبغي أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار ، وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر»<sup>(١)</sup> .

ويتكلم ناصر خسرو عن قصر الخليفة فيقول : إن قصره به نحو ثلاثين ألفاً من الخدم والحواري ، وإنه رأى يوم فتح الخليج - وكان أحد الأعياد في العصر الفاطمي - سرادقاً نُصِب للسلطان على رأس الخليج ، وكان هذا السرداق من الديقاج الرومي ، موشى كله بالذهب ، ومكلم بالجوهر ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس ، وأمام هذا السرداق خيمة من أبي قلمون ، وسرداق آخر كبير ، ويسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبه وأطواق وألحمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديقاج الرومي وأبي قلمون ، وكذلك كانت تسير إبل كثيرة عليها هوداج مزينة وبغال عمارياتها (هوداجها) بالذهب والجوهر وموشاة باللؤلؤ<sup>(٢)</sup> . ويستطرد ناصر خسرو إلى وصف مائدة رأها للمستنصر يوم العيد فيقول : إنه رأى في هذه المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً<sup>(٣)</sup> . ومن يرجع إلى ما رُوي عن ثورة الأتراك في عصر المستنصر أثناء المجاعة العامة بمصر يرى مبلغ ما كان في دور الفاطميين من بذخ وترف يقصر عنهما الوصف ، فقد هجم الأتراك في ثورتهم على قصر المستنصر ونهبوا ما فيه من مجاميع التحف والطُرف وباعوه بأجنس الأثمان ، فمن ذلك سبحة من الأحجار الكريمة قومت بثمانين ألف دينار وصندوق من الجوهر قوم بثلاثمائة ألف دينار ، وأربع عشرة كيلة من

(٣) سفر نامه ص ٦٤ .

(١) سفر نامه ص ٦٢ .

(٢) سفر نامه ص ٥٢ .

الجواهر ، وكثير من أواني الذهب والفضة ، وأربعمائة صندوق من القطع الذهبية ، وحصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا وشرطنج رقعته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وطاووس من الذهب رُصع بالجواهر وكانت عيناه ياقوتتين وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق . . . ومضرب للخليفة الظاهر كان منسوجاً بالذهب ، ومضرب آخر للوزير اليازورى كلفه ثلاثين ألف دينار ، إذ اشتغل في صنعه مائة وخمسون فناً مدة تسع سنوات ، وما لا يحصى من الطيب والعمور والثياب<sup>(١)</sup> وبجانب ذلك نجد المقرئ يقول : إن بنتاً للمعز تركت بعد موتها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف<sup>(٢)</sup> ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إن ابنة للحاكم تركت نيفاً وثمانين زيراً صينيّاً مملوءة مسكاً ، ووجد لها جوهر نفيس من جملة قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل ، وكان إقطاعها في السنة خمسين ألف دينار<sup>(٣)</sup> . وإذا تركنا قصر الخلفاء إلى الوزراء وجدنا ابن منجب يقول : إن إقطاع يعقوب ابن كلثوم أول وزراءهم كان مائة ألف دينار في العام ، وقد خلف بعد موته من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن البز ( الثياب والسلاح ) ما قيمته خمسمائة ألف دينار<sup>(٤)</sup> ، وقد ترك الأفضل بن بدر الجمالي الذي قتله الخليفة الأمر ستمائة ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردباً دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس<sup>(٥)</sup> . وهذه كلها صور تشبه أن تكون أقاصيص ، ولذلك اتهمها بعض الباحثين ، ولكن اتهامه لا دليل عليه ، فقد أجمع المؤرخون على صدقها وتوثيقها .

ونحن إنما سقنا هذا الوصف الطويل لثراء الفاطميين لتنفيذ منه إلى أنهم أوتوا مادة كفيلاً بإحداث نهضة واسعة في مصر سواء في عقلها أو في أدبها وفيها .

(١) خطط المقرئ ٤١٥/١ وما بعدها . (٤) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب

(٢) الخطط ٤١٥/١ . ص ٢٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٢/٤ . (٥) وفیات الأعيان لابن خلكان ٢٢٢/١ .

أما من حيث العقل وما يتصل به من الحركات العلمية ، فإن مصر شهدت في العصر الفاطمي نهضة علمية واسعة ، إذ شجع الفاطميون على الدراسة والثقافة ، وأكبر الدلالة على ذلك أنهم عملوا على تأسيس أكبر جامعة في الشرق ، وهي جامعة الأزهر ، ذلك المسجد الذي بناه جوهر الصقلي ، وسماه بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء ، ويرجع الفضل في تحويل هذا المسجد إلى دار كبيرة للدرس والتثقيف إلى وزير الفاطميين الأول يعقوب بن كلس ، فهو الذي حوله إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والمدنية<sup>(١)</sup> ، وكان بيته يعتبر نادياً (صالوناً) كبيراً في عصره ، فقد «رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاء والفقهاء والقراء والنحاة . . وأصحاب الحديث ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب»<sup>(٢)</sup> ، وتبع الوزراء يعقوب بن كلس يعنون بتشجيع الحركة العلمية . وبني الحاكم داراً عظيمة للكتب سماها دار العلم «وحمل إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون، وأقيم لها خزانون وبتوابون ورُتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم»<sup>(٣)</sup> . ولعل من الطريف أن الفاطميين - مع أنهم كانوا مقيدين بنحلة خاصة فيها تحجر عقلي واسع - كانوا في الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقرئزي : «إن من جملة المعرفة عندهم أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة»<sup>(٤)</sup> . ولعل سبب دعوتهم إلى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلاً يؤدي إلى تبديلها ، فاحتاجوا إلى اللسان الجدل المزود بالفلسفة حتى يُحسن ذلك . ومهما يكن فإن مصر ظفرت في العصر الفاطمي بنهضة علمية واسعة ، ولعل مما يدل على ذلك ما رواه المقدسي الذي زارها في أواخر

(١) Margoliouth, Cairo, Jerusalem and (١) .

(٢) خطط المقرئزي ٤٥٨/١ .

(٣) خطط المقرئزي ٣٩٥/١ .

Damascus, p. 40.

(٤) وفيات الأعيان ٢/٣٣٤ .

القرن الرابع للهجرة من أنه رأى في المسجد الجامع بها مائة مجلس وعشرة<sup>(١)</sup> ويقول ناصر خسرو : إن من رأيهم في مسجد القسطنطين لا يقلون في أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغُرَبَاء والكُتَّاب الذين يحررون الصكوك والعقود<sup>(٢)</sup>.

وهذه النهضة العلمية الواسعة كان يؤازرها نهضة أدبية واسعة أيضاً، فقد كان الفاطميون يرون من الضروري لدعوتهم أن يكون حولهم مجموعة نفيسة من الشعراء والكتاب تنافح عن مذهبهم ، وقد أتوا من المغرب وفي ركبهم ابن هاني الأندلسي يريدون أن يفخروا به ويشعروا به على المشرق كما قال المعز أول خلفائهم بمصر<sup>(٣)</sup> ، وهو فخر لم يقفوا به عند ابن هاني ، فقد عرفوا كيف يذيعون في مصر نشاطاً واسعاً في الشعر وصنعه بفضل جوائزهم ومكافآتهم ، وقد خصص العماد الأصبهاني مجلداً كبيراً في خريدته وصف فيه آثار الشعراء الفاطميين وما كان من نماذجهم . وبإزاء هؤلاء الشعراء وجدت طوائف من الكتاب المتنازين استخدمهم الفاطميون في دواوينهم ، وعنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الإنشاء<sup>(٤)</sup> ، وتكرر الإشارة في الكتب التاريخية عن كتبوا في هذا الديوان . وهناك نص طويل تتناقله هذه الكتب ، يصف سلسل رؤساء الكتاب في ديوان الإنشاء الفاطمي ، نجده في صبح الأعشى وفي النجوم الزاهرة وحسن المحاضرة ، وجاء في الكتاب الأول على هذا النحو : « لما ولي الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمي ، فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطوروس النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر النهوكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران

(١) أحسن التقاسيم (طبع أوروبا) ص ٢٠٥ (٤) انظرمفاتيج العلوم للحوارزمي (طبع فان

(٢) سفرنامه ص ٥٩ . فلوئز) ص ٧٨ وكذلك كتاب تاريخ الوزراء

(٣) وفيات الأعيان ٥/٢ . للهلل بن الحسن ص ١٥١ .

ثم وليّ الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى ، وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجلّ أبو الحسن على بن أبي أسامة الحلبي إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسة فكتب بعده ولده الأجلّ أبو المكارم إلى أن توفى في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبي الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى الفاضل البيسانى ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محموداً الأنصارى ( وهو ابن قادوس السابق ) ثم كتب القاضى الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم <sup>(١)</sup> وهذا النص الطويل له طرافته من حيث إنه يذكر أن الفاطميين لم يفرقوا بين مسلم وذمى فى وظائف ديوان الإنشاء ، وما من ريب فى أن ذلك يدل على أنهم كانوا يطلبون لهذا الديوان منّ تفوق فى تحبير الكلام وصوغه دون تفریق بين من هو من دينهم ومن هو من غير دينهم ، ومن هو من نحلّتهم ومن هو من غير نحلّتهم ، فالبلبغ التام يتولى هذا الديوان بغض النظر عن دينه ومذهبه ، فالبلغة هى مقياسه وهى موضع تقديمه ، ولعلّ مما يدل على مدى تقدير الفاطميين للكاتب الممتاز فى تلك العهود ما يرويه ياقوت عنهم من أنهم جعلوا راتب صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار فى الشهر غير رسوم يتناوفا عن السجلات والعهود وكتب التقليدات <sup>(٢)</sup> ، وبينما يروى ناصر خسرو أن راتب قاضى القضاة كان ألنى دينار فقط <sup>(٣)</sup> .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن النص الطويل السابق لكتاب دواوين الإنشاء

(١) انظر صبح الأعشى ٩٦/١ والنجوم

(٢) معجم الأدباء ٥/٤

(٣) سفرنامه ص ٦٥

الزاهرة ٣٣٧/٧ وحسن المحاضرة ١٤٦/٢

في العصر الفاطمي إنما عرض لرؤسائهم فقط ، ومن يرجع إلى كتب التراجيم لبحث هؤلاء الرؤساء يجدها لا تهتم بهم في الغالب ، وخاصة بالمتقدمين منهم ، وكتب القلقشندي بتفصيل وإسهاب عن دواوين الإنشاء في مصر ومع ذلك لم يعرف تعريفًا واضحاً هؤلاء الكتاب ، وأيضاً فإنه لم يُعْنَ بحكاية آثارهم إذا نحن استثنينا قطعاً منشورة فيه عن ابن الصيرفي وابن قادوس والموفق ابن الخلال (١) ، ومع ذلك فإن ما رواه عن هؤلاء الثلاثة لا يفسر فهم تفسيراً كاملاً ، وهل نستطيع أن نحكم برسائل عارضة على فن كاتب إن لم تكن تلك الرسائل من أمهات رسائله ، ويتصل بذلك أن هؤلاء الثلاثة جميعاً إنما كانوا في أواخر العصر الفاطمي ، فما شأن سابقهم ؟ وأي آثار تركوها ؟ والحق أن المؤرخين خاصمو كتاب الفاطميين ولم يصفوهم وصفاً واضحاً ، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع ، وكان ينبغي أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بعضهم للفاطميين وتشيعهم ، وبين تقديريهم لآثار من نشأوا في ظلال دواوينهم ، وإن الإنسان ليعجب حقاً إذ يرى نهضة الكتابة في العصر الفاطمي لا تكاد تبين إلا من خلال السطور ، ومن أجل ذلك لم يتبين مؤرخو الأدب مدى ما كان في هذا العصر من حركة أدبية مزدهرة ، وإن من يقرأ في معجم الأدباء لياقوت يجده يذكر أن ابن خيران المترقي عام ٤٣٢ هـ أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ليعرض على الشريف المرتضى كى يودعه في دار العلم هناك (٢) . ويذكر عن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء بعد ابن خيران أن له كتاباً في تنقيح البلاغة يقع في عشر مجلدات ، وأن له كتاباً يسمى الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور ، وكتاباً آخر يسمى انتزاعات القرآن ، وإن في هذين الكتابين ما يدل على ميل العميدى إلى نشر الشعر في رسائله واقتباسه الكثير من القرآن الكريم ، وهما صفتان استمرتتا في النثر المصرى من بعده ، روى له ياقوت

. ٣١٨/١٠

(٢) معجم الأدباء ٥/٤ .

(١) انظر في رسائل ابن الصيرفي وابن قادوس

صبح الأعي ٣٢٤/٨ وما بعدها وانظر في رسائل

ابن الخلال صبح الأعي ٣١٠/١٠ وكذلك

شعراً واضحاً فيه أثر الجناس<sup>(١)</sup>، ولسنا ندري هل كان يستخدمه في نثره أولم يكن يستخدمه، لهذه السدود التي أقامها المؤرخون بيننا وبين آثار العصر الفاطمي، وأيضاً ليس لدينا نصوص واضحة عن ولوا الديوان بعده في عصر المستنصر، فقد توفي العميدى عام ٤٣٣ هـ وخلفه أبو الطاهر النهركى، وليس تحت أيدينا له رسائل نعرف منها على فنه، إنما الذى تحت أيدينا حقاً هو مجموعة من رسائل كاتب آخر لعهد المستنصر، ولم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء، ولكنه كان من كتّابه الكثيرين وهو ابن الشخباء المترقى عام ٣٨٢ هـ وربما كان أهم كاتب فاطمى احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله، ونستمر بعد ابن الشخباء فتلقتى بابن الصيرفى الذى خدم فى الديوان من عام ٤٨٥ هـ إلى عام ٥٣١ هـ، ويقول ياقوت: إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات، ولكن هذه المجلدات فقدت، وما بقى من نثره لا يصوره تصويراً واضحاً، وكذلك الشأن فى ابن قادوس الذى خدم من بعده فى ديوان الإنشاء على الرغم من أن القاضى الفاضل كان يسميه صاحب البلاغتين، ولعل ما رواه صبح الأعشى عن الموفق بن الخلال يفصح بعض الشيء عن فنه، ففى رسالة له تصنع واضح لاصطلاحات النحو، إذ يقول فى بعض جوانبها<sup>(٢)</sup>:

« وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوّض إليك مقاليد البسّط والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف، والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتشبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز والإذلال، والإساءة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدّثه تصاريف الأيام.»

وإن مما لاشك فيه أن كتابة الرسائل بلغت فى العصر الفاطمى مبلغاً عظيماً من الرقى والاكتمال، بدت فيها منذ أوائل هذا العصر نزعة إلى السجع، فإن من يرجع إلى الكتاب الذى كتبه المعز لأحد قواد القرامطة - وهو كتاب

(١) انظر ترجمة العميدى فى معجم الأدباء (٢) صبح الأعشى ١٠/٣١٦.

طويل - يجد أكثره بُنى على السجع<sup>(١)</sup> ، وقد روى صاحب صبح الأعشى عن العزيز نزار كتاباً فيه سجع كثير<sup>(٢)</sup> . وإذا تركنا القرن الرابع إلى القرن الخامس وجدنا صاحب النجوم الزاهرة يروى كتاباً صدر عن الخلافة الفاطمية ، بُنى كله على السجع مع أنه طويل<sup>(٣)</sup> . ونستمر حتى نلتقى بابن الشخياء ثم ابن الصيرفي ثم ابن قادوس والموفق بن الخلال ، وكل هؤلاء بُنيت كتابتهم على السجع والتصنع فيه ضرورياً من التصنع ، وربما كان ابن الشخياء كاتب عصر المستنصر خير من يعبر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمي ، فقد بقيت لنا من أعماله طائفة صالحة تفسر طابع فنه ، بل طابع عصره في الكتابة ، ولذلك سنقف عنده وقفة قصيرة .

### ابن أبي الشخياء :

هو الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخياء العسقلاني « من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعاً من ثنايا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبقها وسابقها ، وكانت وفاته - رحمه الله - مقتولاً بخزانة البنود - وهي سجن بمصر - سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة »<sup>(٤)</sup> ، ويقول ياقوت : كان ابن الشخياء « يلقب بالحجيد ذى الفضيلتين ( الشعر والنثر ) ، أحد البلغاء ، الفحصاء ، الشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة ، قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمد ، وبها اعتد . . . كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر ، لأن في رسائله جوابات إلى البساسيري إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه »<sup>(٥)</sup> ، وذكره العماد الأصماني في الخريدة فقال : « الحجيد مجيد كسنته قادر على ابتداع الكلام

(١) الاماظ للمقريزي ١٣٣ - ١٤٣ .

(٢) صبح الأعشى ٤٣٤/٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

(٤) الذخيرة : القسم الرابع من نسخة

فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٣ .

(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٥٢/٩ .

ونَحْتَهُ، له الخطب البديعة ، والمُلْحُ الصَّئْبِعة «<sup>(١)</sup>، ويقول عنه ابن خلكان : « الشيخ المجيد أبو علي الحسين بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني ، صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبَّرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى ، ويقال : إن القاضي الفاضل - رحمه الله - كان جُلُّ اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره »<sup>(٢)</sup> . وواضح من هذه النصوص أن من كتبوا عن ابن أبي الشخباء أشادوا ببلاغته ، كما أشاروا إلى أن القاضي الفاضل كان يحتذى على أمثله ، وينهل من معين صياغته ، ولو بقيت رسائله إلى عصرنا لأمكن تتبع هذا الحكم ، وبيان الصلة بين الأديبين الكبيرين : أديب العصر الفاطمي وأديب العصر الأيوبي ، ولكن رسائله فقدت ، ومع ذلك بقيت منها بقية في الذخيرة لابن بسام ومعجم الأدباء لياقوت ، وهي حقاً تؤكد الصلة بين عمل الرجلين ، وانظر إلى ابن الشخباء يقول من رسالة يهني فيها بهزيمة أتمسز ابن أوق الغزني الذي خرج في الشام وقد كتب بها سنة تسع وستين وأربعمائة<sup>(٣)</sup> :

« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخرَ للدولة الفاطمية - ثبتَ الله أركانها - من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية - خلَّد الله سلطانها - من حمى سوادها ، ونصّر أعلامها ، وضمّ نَسْرَها ، وحفظ سريرها ومنبرها ، بعد أن كان الأعداء - الذين ارتضعوا درّ إنعامها ، وتوسّموا بشرف أيامها ، فطردت يدُ الاصطناع إملاقهم ، وأثقلت فلائدُ الإحسان أعناقهم - خفروا ذمم الولاء ، وكفروا سوايغ الآلاء ، ففجأتهم الحوادث من كل طريق ، ونعَب بهم غراب الشتات والتفريق واستباحتهم يد الشدائد ، وأتى الله بُنْيَانهم من القواعد، ولم تزل النفوس منذ طرق «أتمسز» اللعين هذه البلاد، وأنجم فيها أنجمَ الفساد ، وتعدّى حدود الله وكلماته ، وتعرّض لمساخطته ونقماته ، عالمة بأن إملاء الحضرة العلية - مدّ الله ظلها على الكافة - لم يكن عن استعمال رُحْصَة في هذه الحال ، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال ، بل هو

(١) الخريدة : الجزء الخاص بشعراء مصر (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٣/١ .  
 (٣) معجم الأدباء ١٦٤/٩ .  
 وفلسطين ورقة ١٤ .

أمرٌ رُكِّبَ فيه مَنُّ التدبير ، وجرتْ بمثله المقادير ، واتَّبِعَ فيه قوله تعالى : ( فأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) ، في حين خدعته المطامع المُرْدِيَّةُ ، إلى الأعمالِ القاهرة ، مؤملاً انقسام عروة الله المتينة ، وأقول ما توقد من شجرة مباركة زيتونة . . . والله المحمودُ على ما منح من هذه النعمة والمسئولُ أن يشدَّ ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ، ويسمِّمَ بمحامدها أغفال الأيام ، ويستخدم لها السيوف والأقلام ، حتى لا يبقى على وجه الأرض متفحصٌ قطاة إلا وقد دوَّخها سنابك خيولها ، ولا مسقطُ نواة إلا وقد ركزت فيه صدور رماحها ونصولها ، فقد دفعت . . . خطباً جسيماً ، واستلحقت من السياسة أمراً عقيماً ، وأعدت شمل الأمة ملموماً نظيماً ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان فضلُ الله عظيماً . »

وأنت ترى من هذه القطعة أن ابن الشخياء يعنى بالتشخيص والتصوير كما يعنى بالاعتباس من القرآن الكريم . وهذان عنصران أساسيان في فن القاضى الفاضل ، وهو كما يعنى بذلك يُعنى أيضاً بأن يضمَّ كل لفظة إلى أختها ، وكل صورة إلى شاكلتها ، فإذا ذكر مفحص القطاة مثلا ذكر السنابك والخيول ، وإذا ذكر مسقط النواة ركز فيه الرماح والنصول ، وسرى القاضى الفاضل يبالغ في استخدام هذا العنصر من مراعاة النظر . وليس ذلك كل ما نجده عند ابن الشخياء من عناصر استمد منها القاضى الفاضل ، فهناك عناصر أخرى ، منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله في مطلع رسالة لبعض الوزراء وقد بلغه أن شخصاً هجاه عنده : « لو لم تقمَّض الشريعة - أطال الله بقاء سيدنا - برفض المقالة ، عارية من البرهان والدلالة ، لكان ذلك في الغريزة راتباً ، وفي حكم العقول واجباً » (١) ، فقد تصنَّع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول والدلالة . وكل ذلك يسوقه في خفة تجعلنا لا نلاحظه ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه استهل رسالة للأفضل بن بدر الجمالى بقوله : « خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً ، وتقدَّمت واو العطف معطوفاً ، ولزمت

(١) الذخيرة : القسم الرابع ورقة ١٨٣ .

الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً<sup>(١)</sup>، وكما كان ابن الشخاء يتصنع لمصطلحات العلوم كذلك كان يتصنع للإتيان بجناس متكلف شبيه بجناسات أصحاب التصنع كقوله من رسالة إلى من يسمى صارم الدولة بن معروف<sup>(٢)</sup>:

« جاءته مناقبُ الحضرة العلية فتمَّ بها مناقبُ تميم ، وحكم لآل القعقاع أمر حكيم ، ونُصِر لواء بني نصر ، وأبدرت أهلةُ بني بدر ، ونبه منبه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ، وضحكك لعبس عابس الدهر ، وراحت الكملةُ كاملة الفخر ، وزادت مغايب الأزد ، وقشرت قشِير عن بلوغ المجد ، وأغمدت سيوف بني غامد ، وصارت همدان كالجمر الهامد ، ومدحج كالعنَس مذلة ، وحمير بالراية الحمراء متظلمة ، وطوت طيبي عملها استخذاءً وغطت جفنته جفونها استيحاء ، فحرس الله محاسن الحضرة السامية التي جباهُ الأنام بها موسومة ، وتم نعمتها التي هي بينها وبين الناس مقسومة » .

أرأيت إلى هذه المبالغة في استخدام الجناس والاحتيال عليه بذكر هذه القبائل الكثيرة ؟ وأكبر الظن أن القارئ قد أحسَّ هنا روح أصحاب التصنع ، ولكن لا تظن أن ابن الشخاء كان يعمم ذلك في رسائله ، بل هو يظنُّه فيها من حين إلى حين ، وهذه سنة الكتاب في الأقاليم المختلفة ، فهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هم دائماً يتقبلون بين المذاهب والأذواق المختلفة ، فبينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع ، إذا هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع ، أو من ذوق أصحاب الصنعة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً في تاريخ الأدب العربي لا نثره ولا شعره ، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنيع والتصنع ، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها في غير نظام . وهذه الظاهرة كما تتصل بابن الشخاء تتصل بجميع كتاب العصر الفاطمي المتأخر ، فليس بينهم من استطاع أن يبتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة ، إنما دائماً الجمود عند المذاهب المسبوقة والطرق الموروثة .

ومهما يكن فقد كان ابن الشخباء من كبار الكتاب في العصر الفاطمي ، وهو من هذه الناحية يعتبر سجلاً طريفاً لتطور الكتابة في هذا العصر ، فإن ما بقي من كتبه ورسائله يدل على خطأ من يذهبون إلى أن القاضي الفاضل هو أول كاتب كبير يظهر في مصر ، ويبالغ بعض مؤرخي الأدب في ذلك ، فينسبون إليه ما يسمى طريقة القاضي الفاضل ، وحقاً إن القاضي الفاضل كان أكبر شخصية ظهرت في الكتابة بعد العصر الفاطمي ، ولكن ينبغي أن لا نبالغ في ذلك مبالغة تؤدينا إلى أن نرعى العصر الفاطمي بالتأخر في الكتابة ، فإن القاضي الفاضل نفسه تخرج في هذا العصر ، ولو لم يأت أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر لكان القاضي الفاضل من كتاب العصر الفاطمي ، بل لقد تمّ تكوّن القاضي الفاضل في هذا العصر نفسه ، وكان من كتّاب دواوينه ، بل لقد كان يقلد تقليداً شديداً آثار كتابه من أمثال ابن الشخباء وغيره ، وسرى أنه لا يكاد يأتي بجديد في استخدام العناصر الفنية بالقياس إلى صناعة ابن الشخباء ، إنما كل ما هنالك أنه اتسع بها ، ووسّع طاقتها ، واستطاع أن ينفذ بها إلى كل ما أراد من تجويد وتحبير .

## ٥

### الأيوبيون ونهضة النثر في عصرهم

لا نكاد نتقدم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري حتى يقوم الخلاف العنيف بين شاور وضرغام وزيري العاضد ، وسرعان ما تتأجج نيران الحروب بينهما ، فيستعين شاور بنور الدين صاحب حلب ، وهو أكبر شخصية حينئذ كانت تُعنى بحرب الصليبيين ودفع موجاتهم إلى البحر المتوسط وما ورائه ، وحدث أن ضرغاماً استعان بهم ضد خصمه ، فخشى نور الدين أن يستولى الصليبيون على مصر وأن يندفعوا منها إلى الاستيلاء على العالم العربي ، لذلك أرسل إلى شاور بنجدة كبيرة ، على رأسها أحد قواده وهو أسد الدين

شيركوه ، وجاء أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم الصليبيين وردّ الأمر إلى شاور إلا أنه قُتل فحلّ محله أسد الدين في وزارة العاضد ، ولكن الموت عاجله ، حينئذ نرى صلاح الدين يتولى الوزارة مكان عمه ، وينسبهم الموقف فالخليفة شيعي ، ووزيره سني ، وهو يتبعه من جهة كما يتبع نور الدين من جهة أخرى . ويُرسَل نور الدين إلى صلاح الدين أن ينقل الخطبة في المسجد الجامع إلى الخليفة العباسي ، ويقضى على نظام الحكم الشيعي ، فيصدع صلاح الدين بالأمر ، وينفذ مشيئة نور الدين . ثم تخدم الظروف صلاح الدين ، فإذا نور الدين يتوفى بعد قليل ، فيستقل هو بمصر ، بل نراه يذهب إلى الشام فيستولى على ممتلكات نور الدين حتى يوحد العالم الإسلامي أمام الصليبيين ، ويستمر فيستولى على أجزاء من الموصل ، كما يستولى على بلاد العرب ، ويؤسس في مصر دولة عظيمة هي الدولة الأيوبية التي كان أصحابها يلقبون أنفسهم بالملوك .

كانت الدولة الأيوبية دولة سُنِّيَّة ، لذلك أخذت تناهض التشيع الفاطمي ومظاهره في مصر ، واتخذت لذلك طريقة منظمة هي إنشاء المدارس والمعاهد السُنِّيَّة ، وقد بدأ صلاح الدين هذه الحركة ، فأنشأ طائفة من المدارس كى يدعم الدعوة السنية ، يقول ابن خلكان : « لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المداس ، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمل في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضى الله عنه . . . وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الفاطميين خانقاه ، ووقف عليها وقفاً طويلاً ، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظاهر العبّيدى والعاذل ابن السلاّر مدرسة للحنفية ، وعليها وقف جيد كبير أيضاً ، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزین التجار وقفاً على الشافعية ، وقفها جيد أيضاً »<sup>(١)</sup> . وكما عُنِيَ صلاح الدين بمحاربة التشيع في مصر عُنِيَ أيضاً بمحاربة الفيلسوف عناية

(١) وفيات الأعيان ٢/٤٠٢ .

شديدة ، يقول القاضي ابن شداد في سيرته : « كان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة ، ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله » (١) وأكبر الظن أن لصالح الدين بدأ في ضعف الحركة الفلسفية بمصر منذ عصره ، فقد تبعه العلماء يعنون بالدراسات الدينية والتاريخية واللغوية مهملين للدراسات الفلسفية ، واستمر ذلك طوال العصر الأيوبي وعصر المماليك أيضاً ، يقول بهاء الدين السبكي وهو من علماء عصر المماليك : « إن أهل مصر صرفوا همهم إلى علوم اللغة والنحو والفقہ والحديث وتفسير القرآن بخلاف أهل المشرق الذين استوفوا همهم الشائخة في تحصيل العلوم العقلية والمنطق » (٢) . ومعنى ذلك أن مصر استمرت مطبوعة بالطابع الذي أرادها لها صلاح الدين حتى عصر المماليك وبعد عصرهم أيضاً ، وكأنما إعجاب المصريين بصالح الدين وحروبه الصليبية جعلهم يقتدون بسيرته في حياته العقلية .

ومن يرجع إلى سيرة ملوك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين يجدهم يهتمون اهتماماً بالغاً بالدراسات السنية وخاصة دراسة الحديث ، وما يروى بصدد ذلك أن ابنه العزيز الذي خلفه على مصر سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقهاء أبي طاهر بن عرف الزهري وأبي محمد بن برّي النحوي وغيرهم (٣) ، وكان عمه العادل الذي ولي مصر بعده معنياً بأرباب السنة ، صنف له فخر الدين الرازي كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه في خطبته وسيره إليه من بلاد خراسان (٤) . وكان الكامل ابنه يحب العلماء والأمثال ويلقى عليهم المشكلات (٥) ، وكان محباً للحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف ، خرج له أبو القاسم بن الصفراوي أربعين حديثاً ، وسمعا جماعة ، ويقولون : إن ابن برّي وغيره أجازوا له رواية الحديث (٦) ، وقد بنى مدرسة عُرفت باسم دار الحديث الكاملة ، وهي ثاني دار عُملت للحديث ، أما أول

(٤) النجوم الزاهرة ١٦٣/٦ .

(٥) نفق المصدر ٢٢٧/٦ .

(٦) النجوم الزاهرة ٢٢٨/٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٩/٦ .

(٢) عروس الأفرح للسبكي ٥/١ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

دار فهي الدار التي أسسها نور الدين بدمشق<sup>(١)</sup> ، ونستمر حتى نلتقى بالملك الصالح نجم الدين أيوب فزراه ببنى المدرسة الصالحية ، وكانت تدرّس فيها المذاهب الأربعة<sup>(٢)</sup> ، وما من ريب في أن ذلك كله يدل عن أن الأيوبيين بعثوا في مصر اهتماماً واسعاً بالدراسات الدينية .

وإذ تركنا الدراسات الدينية إلى الكتابة الأدبية ، وجدنا الأيوبيين يحنون في عصرهم ثمار النهضة الفنية التي رأيناها في العصر الفاطمي ، وقد ظفروا فيما ظفروا من هذه الثمار بالقاضي الفاضل أحد كتّاب دواوين العصر الفاطمي ، وقربّه منه صلاح الدين واتخذته وزيره وكتّابه ، وكان أبلغ كتّاب عصره ، فدفع العصر الأيوبي كله من ورائه في دوائر نماذجه ، وما أتاحة لهذه النماذج من صفات أدبية ، وأعانتته في ذلك شخصية كبيرة أنت من المشرق ، هي شخصية عماد الدين الأصبهاني الذي نشأ بأصبهان ثم قدم ببغداد وتخرّج في المدرسة النظامية ، ولما تخرج فيها خدم الوزير يحيى بن هبيرة ببغداد ، ثم انتقل إلى دمشق وسلطانها يومئذ نور الدين ، فألحقه بديوان الإنشاء ، وتعرّف أثناء ذلك بصلاح الدين وقامت بينهما مودة وثيقة ، ولما أنشأ نور الدين المدرسة النورية في دمشق أسندها إليه ، واستمر في هذا العمل حتى توفّي نور الدين ، فانتقل إلى صلاح الدين وتعلق به ومدحه كثيراً كما مدح القاضي الفاضل ، رجاء أن ينظمه في سلك سلطانه ، وعمل القاضي الفاضل على ذلك فقربّه من صلاح الدين ، وأصبح الكتّاب الثاني في الدولة الصلاحية بعد القاضي الفاضل . وكان العماد أديباً كبيراً ، له ديوان شعر ورسائل كثيرة ، كما أن له الكتاب المشهور : «الفتيح القُسيّ في الفتح القُدسيّ» ، يصف فيه فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وأيضاً له الخريدة . وهو ينهج في كتاباته نهج أصحاب التصنع في عصره ، وقد كان القاضي الفاضل يذهب غالباً هذا المذهب مستنّاً في ذلك بكتّاب العصر الفاطمي وعلى رأسهم ابن الشخباء ، فعآلف الكتّابان فنسباً كما تألفا اجتماعياً ، ولعل مما يثبت عناية الشيخين بالتصنع ما يروى من أن

(٢) حسن المحاضرة ١٥٦/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٢٩ .

العماد لقي القاضى الفاضل يوماً وهو راكب على فرس فقال له : سرّ فلا كُبا بك الفرس ، فقال له القاضى الفاضل تَوّاً : دام عملاً العماد<sup>(١)</sup> وأكبر الظن أن القارئ لا يزال يذكر ما مر بنا عند الحريرى مما كان يسميه « ما لا يستحيل بالانعكاس » وكان الحريرى يأتى به ليدل على مقدّمته البالغة ، وهما نحن الآن فى مصر بعد الحريرى بنحو نصف قرن نقرأ فى آثار مشاهير الكتّاب ، فإذا هم يتجهون نفس الوجهة من الإطراف بغرائب العبارات ، وهو إطراف لا يأتى من المعنى ، وإنما يأتى من الشكل الخارجى ، إذ يستطيع الأديب أن يستخدم عقُدة من عقد التعبير ، وهو غالباً لا يأتى بعقد جديدة ، وإنما يستخدم بعض العقد السابقة ، فإذا القاضى والعماد جميعاً يعمدان فى جملتين إلى استخدام « ما لا يستحيل بالانعكاس » فيهما حتى يدلّ على مقدرتهما وبراعتهما وأنهما يستطيعان أن يأتيا بعبارات تُقرأ طرُداً وعكساً. والغريب أن العماد مع أنه جاء من المشرق موطن التصنع لم يستطع أن يتفوق على القاضى الفاضل الذى تخرج فى ديوان الفاطميين ، وهذا نفسه دليل واضح على أن هذا الديوان ارتقت فيه الكتابة فى العصر المتأخر رقيّاً لا يقل عن رقيها فى المشرق . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أستاذ عصره غير منازع ، وشهد له ابن خلكان بذلك ، إذ وازن بين كتبه فى فتح بيت المقدس وما كتبه العماد وغيره ، فقال : « إنه رئيس هذا الفن ، وإذا شرع فى شىء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يُجاره ولا يباريه »<sup>(٢)</sup> ، وسن أجل ذلك سنقف عنده لتبين نهضة الكتابة الفنية فى العصر الأيوبي وما امتازت به من خصائص أدبية وهى خصائص استمرت تخضع لها الأجيال التالية خضوعاً شديداً .

### القاضى الفاضل

هو عبد الرحيم البيسّانى ، ولد فى عَسْقَلان ، فهو عسقلانى الأصل كابن الشخباء ؛ وولى أبوه قضاءه بيّسان من قبل الفاطميين فنُسب هو إليها . ولما

(١) معجم الأدباء ١٩/١٨ ووفيات الأعيان ٧٥/٢ . (٢) وفيات الأعيان ٣٩٥/٢ .

شَبَّ أرسل إلى ديوان الإنشاء في القاهرة ليتخرج فيه ، فحضر إلى مصر في عهد الحافظ<sup>(١)</sup> (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) وتلمذ على أشهر الكتّاب وكان الموفق ابن الخلال حينئذ رئيس ديوان الإنشاء ، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور ، فلزمهما ، ويقول الرواة : إنه لما مثل بين يدي الموفق سأله : ماذا أعددتَ لِنِ الكِتَابَةِ ؟ فأجابهُ : إني أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة ، فأمره أن يحلَّ شعر الحماسة كله<sup>(٢)</sup> ، ثم ما زال به يدرِّبه على الكتابة حتى نبع فيها ، ولكنه لم يستمر مع الموفق ، بل ذهب إلى قاضي الإسكندرية المسمى بابن حديد فكتب عنه كتباً حَبْرًا تحبيراً ممتازاً ، ويقال إن الوزير : العادل ابن رزيك (٥٥٦ - ٥٥٨ هـ) اطلع على بعضها : فأعجب بها ، وطلبه ليسلكه في كتاب ديوانه ، فعاد إلى القاهرة ، ومكث في ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه فقربه منه واتخذ كاتبه ، ولما توفي استخدمه صلاح الدين . ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدومها ، فإننا نجد صلاح الدين يتخذ وزيره ومشيريه كما يتخذ كاتبه ، وروى عنه أنه قال : «والله ما ملكت البلاد بسيفكم ولا برماحكم ، ولكن بقلم القاضي الفاضل» ، ويقول ابن فضل الله العمري : «كان القاضي الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها ، وصاحبها ومشيرها ، والحاكم في كلِّها ، والمجهَّز لبعوثها ، ومع هذا كله كان لا يزال منكئداً مُبْتَلًى بضمنا قلبه وجسمه ، ومرض همه وسقمه . . . ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفراً في كل مرة ، وكان العماد ينوب عنه»<sup>(٣)</sup> ، وذكر القاضي نفسه علتة في أحد خطاباته فقال : «والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضى قلب وجسد ، ووجع أطرافٍ وعليل كبد»<sup>(٤)</sup> ، وكما كان القاضي عليلاً كان - على ما يظهر - تزور عنه العين ،

(١) تختلف الروايات في الخليفة الذي جاء القاضي الفاضل في عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر ، ورجحنا الأولى لأنها هي التي تتلامح مع تاريخ القاضي الفاضل ، انظر ابن خلكان ٤٠٨/٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٤٠٨/٢ .

(٣) مسالك الأبصار : نسخة خطية بدار الكتب منقولة عن نسخة فوتوغرافية بها ، الجزء السابع ، ورقة ٦٥٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ١٢٨/٦ .

قال الأسعد بن ممانى : « كان القاضي الفاضل دميم الخلق ، وكان له حذبة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان ، حتى لا تظهر للناس »<sup>(١)</sup> .

وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة وتجويده ما لم يبلغه أحد في عصره ، يقول العماد الأصهباني في حقه : « رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ما تُسمع فى الأوائل ، ممن لوعاش فى زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يبتدع الأفكار ، ويفترع الأبيكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار »<sup>(٢)</sup> .

ويقول الزويرى : « إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغرقت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة »<sup>(٣)</sup> . وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته كما أشار كثير منهم - وعلى رأسهم العماد الأصهباني - إلى أنه صاحب طريقة ، أو كما يقول للعماد شريعة جديدة ، ولكن ينبغي أن لا نظن من ذلك أن القاضي الفاضل ابتكر مذهباً جديداً فى تاريخ النثر العربى ، إنما كل ما هناك أنه قلّد أصحاب التصنع فأحسن التقليد . ومن المهم أن نعرف أن الكتاب فى الأقاليم المختلفة منذ القرن السادس أخذوا يُغمّرون بدوق التصنع فى الكثير الأكثر ، وقلما تركوا هذا الدوق إلى ذوق التصنيع ، وبدأت هذه الموجة فى مصر لا بالقاضى الفاضل ولكن بابن الشخباء الذى عرضنا له فى العصر الفاطمى ، والقاضى الفاضل نفسه حين كان يكتب فى العصر الفاطمى كان يكتب بهذا الدوق ، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين<sup>(٤)</sup> :

(١) بدائع الزمور لابن إياس (طبع بولاق) ٧٥/١ . (٢) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ١/٨ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٨٤/١ . (٤) صبح الأمتى (طبع دار الكتب) ٧/٧٩ .

« كتابنا - أطال الله بقاء المليك - عن مودة ظاهرة الأسباب ، متظاهرة الأنساب ، ضافية جلباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ، ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ، ومسامي مساعد لا ينقض معروفها ، ولا يسقطن مسؤفها<sup>(١)</sup> ، وسعادة بالخلافة التي عذق<sup>(٢)</sup> به أمرها ، وأوضح سرها ، وملأ سرائرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقررها . »

وهذه الصورة من التعبير وما يطوى فيها من تشخيص وجناس وإمعان في هذا الجناس هي الصورة العامة لكتابة القاضي الفاضل ، ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة في صبح الأعشى يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لآي الذكر الحكيم ، كما يجد اهتمامه البالغ بالتنظير ، بحيث لا تغلو إذا قلنا إن فن القاضي الفاضل استوى له نهائياً في العصر الفاطمي . ونحن نعرض على القارئ قطعاً من رسالة تعتبر أشهر ما دبرجه - وهي رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة بيغداد يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس - حتى يطلع على خصائصه الأدبية في أروع أثر أدبي عني به وتنديجه ، وهو يستهلها على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجذب بكل جاحد ، غني التوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ، ماضي حكم القوم بعزم لا يمضي إلا بنسل غربي وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المربع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خميلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

وأنت ترى القاضي الفاضل في هذه القطعة الصغيرة عني - كما عني في مستهل الرسالة العاضدية - بألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وذهب يطيل في عباراته حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص ، وما من شك في

(٣) صبح الأضى ٤٩٦/٦ وابن خلكان

. ٣٩٢/٢٠

(١) مسؤفها : مؤجلها .

(٢) علق به : اختص .

أنا نحس في كل ذلك ذوق أصحاب التصنع ، إذ نراه يحاول أن يبرن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن من جناسات منقوصة وغير منقوصة واستمر في الرسالة فستره يقول عن صلاح الدين وفتحته لبيت المقدس إنه :

« فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهارُ به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن واره ؛ فإنه نور لا تكنه أغساق السُدْف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف . وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظَّتْ قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغَضَّتْ عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطْفَ الكرى من الجفون ، وجُدعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحنة بالمنى أوراغفة بالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الفكر مهتومة ، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » .

وواضح أن سمات القاضى الفاضل التى رأيناها منذ مطلع الرسالة لاتزال هى نفسها ، فهو يعمم فى جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وكان ما يزال يستخدمه فى جميع أشكاله من تامة وغير تامة ، واستهدفت فى أثناء ذلك لأن يُورَى بين كلمة « بأنواره » وكلمة « بأن واره » وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم التورية كثيراً فى نثره ، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة فى تاريخ أدب مصر الإسلامية<sup>(١)</sup> ، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلي فى المغرب<sup>(٢)</sup> والحريدة<sup>(٣)</sup> يجد أن هذا اللون عُرف فى مصر منذ أوائل القرن

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة

ص ٢٠٧ ، ٢٤٤ .

الخيرية) ص ٢٤١ .

(٢) الحريدة : قسم شعراء مصر . (طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦٣/٢ .

(٣) المغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة)

الخامس ، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضي الفاضل أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر . ومهما يكن فقد كان القاضي الفاضل يُعنى بأن تضمّ كُتبه عناصر مذهب التصنع وخاصة عنصر الجناس والتشخيص وتضمين الشعر ثم عنصر الاقتباس من آي القرآن الكريم على نحو ما نجد في القطعة السابقة إذ نظم في عباراته قوله تعالى : « وضُربت عليهم الذلة والمسكنة » ، وكذلك قال : « وبدل الله مكان السيئة الحسنة » وقال : « من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » وفي هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم . ومع ذلك فعناصره الفنية التي يستخدمها لم نتهيها كلها حتى الآن ، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه في كتابته وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم ، واستمر في الرسالة الآتفة فسراه يقول :

« كان يبدّل المذاهب منائر والكنائس مساجد ويبوئ بعد أهل الصُّلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد، ويُقرُّ عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصرُ منه ومن عساكره بجارٍ ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يُخاف زلزاله وزِياله إلى يوم التَّقْخ في الصور » .

ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه ، وهو أن القاضي الفاضل تصنّع هنا لذكر الجار والمجرور وراعى النظير فذكر كلمة « تعلق » وكل ذلك ليستم ما يدل به على براعته في فنه ، وهو حقاً لم يكن يكثر من التصنع لمصطلحات العلوم ، ولكنه يظهر على كل حال في رسائله ، واستمع إليه يقول من رسالة أخرى<sup>(١)</sup> :

« سلام الله الأطيب ، وبركاته التي يستدرّها الحُضْر والغُيْب ، وزكواته التي ترفع أوليائه إلى الدرّج ، ونعمه التي لم تجعل على أهل طاعته في الدين من حَرَج ، على مولانا سيد الخلق ، وسادّ الخرق ، ومسدّد أهل الحق ، وواحد الدهر الذي لا يُشنى ، وإليه القلوب تُشنى ، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولاته

جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولا استقبال قبلة ممن لا تكون محبته في قلبه  
تقيم ، واسمه في عمله إلى الله يسير .

وقد بدت هنا رغبة القاضى فى التصنع لمصطلحات النحو بأكثر مما بدت  
فى رسالة فتح القدس ، فهناك كان يتخفف ، أما هنا فإنه يطيل فى تصنعه  
لمصطلحات النحو إطالة تجعل الإنسان يلاحظها ، إذ تراه يذكر الواحد  
والثنى ثم الجمع ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقف ليذكر جمع السلامة وجمع  
التكسير ، وأكبر الظن أن فن القاضى الفاضل قد اتضح لنا الآن ، فهو لا  
يعدو فى عناصره الأساسية ما سبق أن رأيناه عند ابن الشخباء . وهذا نفسه  
هو ما يجعلنا نؤمن بأن القاضى الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق  
الموروثة ، بل لقد كان يعيش - كغيره من أدياء عصره - فى الإطار الفنى  
العام لمذاهب المشرق ، وكان يعجب خاصة بمذهب التصنع وما وصل إليه  
ابن الشخباء مواطنه فى استخدامه ، فذهب يتعلق بطرائفه من مصطلحات  
العلوم والمصطلحات الأخرى من التشخيص ومراعاة النظير وألوان البديع من  
طباق وغيره ، وتعلق بالجناس خاصة على سُنَّة أصحاب التصنع فاستخرج  
منه غرائب كثيرة كقوله فى إحدى رسائله (١) :

والحمد لله الذى صدقه وَعَدَّه ، وأورثه الأرض وحده ، وجدَّد علاه ،  
وأعلى جَدَّه ، وأسعد نجمه ، وأنجم سعده ، ووعدته نُجُجَحه ، وأنجح وعده ،  
وأورده وصفه ، وأصنى ورَّده .

وفى هذه القطعة ما يدل على مدى احتفال القاضى الفاضل باستخراج كل  
ما يمكن من أشكال الجناس الهندسية ، ولعل القارئ يلاحظ أنه تفد عليه  
الآن صور الجناس المعقدة التى مرت بنا عند الحريرى والحصكى خاصة ،  
إذ كان يعجب بهذا الضرب من الجناس المقابو ، وتما هذا النوع فى  
الأقاليم المختلفة ، وكان القاضى الفاضل داعيته فى مصر إذ كان ينحو بأسلوبه

جملة نحو أصحاب التصنع ، وليس معنى ذلك أن أسلوبه كان ضعيفاً أو رديئاً فقد كان لديه من البراعة الفنية ما جعله ينهض بصعوبات التصنع دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثقال ، ولكننا لا نستمر بعده حتى نحس أنها أصبحت أثقالاً غليظة . وقد ذكرنا أنه عني في كتابته بالتورية ، وساق صاحب خزانة الأدب من أمثلها قوله <sup>(١)</sup> :

« في يوم شديد المطر والبرد ، والخدام في رأس جبل يتلقى الرحمة غَضَّةً قبل أن يبتلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحها المملوك بالسَّجْمَةِ » .

فقد ورى تورية واضحة في كلمتي « وإذا السماء انشقت » و « السجدة » ولكن يظهر أن القاضى لم يكن يكثر من ذلك في رسائله . ونحن لا نستطيع أن نزعم بأن هذا العمل مذهب جديد للقاضى الفاضل ، فهو ليس أكثر من لون من ألوان البديع وبعده مستخدماً قبله عند الشعراء الفاطميين فأدخله في نثره ، ومن يدري ؟ ربما سبق بمن استخدمه قبله من الكتاب في العصر الفاطمى نفسه . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أبلغ كتاب العصر الأيوبي ، وقد ظلت المصطلحات التي استخدمها في فنه أساسية عند جميع الكتاب المصريين من بعده ، حتى ليقول النويرى : « إن كل فاضل بعد الفاضل فضلة » <sup>(٢)</sup> ولم يكن هذا إحساس النويرى وحده ، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده ، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذي يحتذونه ويقلدونه ، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا إن العصور التي تلت في مصر كان أصحابها يصوغون دائماً على مثاله ، وينسجون على منواله .

(١) خزانة الأدب ص ٢٤٣ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ٢/٨ .

### المماليك وامتداد النهضة في عهدهم

تُطلق كلمة ممالك على ضرب من الرقيق كان يؤسّر في الحروب أو يباع في الأسواق . وأول من استخدم هؤلاء المماليك في شئون الحكم والسياسة المعتصم الخليفة العباسي ، فقد جلب منهم جماعة كبيرة استخدمها في حروبه ، وكان يجلبهم من شباب أواسط آسيا الأشدّاء . ونحن نعرف قصة هؤلاء المماليك الأتراك في الدولة العباسية ؛ إذ سرعان ما انتقل إليهم تصريف الأمور ، وأصبحوا هم الحاكمين بأمرهم ، أما الخليفة فكان يحكم حكماً اسمياً . وكان صلاح الدين ومولاه نور الدين يستعينان في حروبهما ضد الصليبيين بقبيل من هؤلاء الأتراك : ولما جاء الصالح أيوب جمع حوله جيشاً كبيراً منهم وبني لهم قلعة في جزيرة الروضة ، لذلك سُموا المماليك البحرية ، وسرعان ما أصبحوا هم المتحكمين في كل أمور الدولة كما أصبح لهم سلطان كبير ، فقتلوا «توران شاه» آخر الملوك الأيوبيين وولوا عليهم «شجرة الدر» زوج أبيه ، فتزوجها أيبك التركماني وأدار هودفة الأمور بنفسه ، ولكنها اختلفت معه فقتلته ، فتولى ابنه ، وفي عهده قتلها المماليك انتقاماً ، ثم عزل ، وتولى الحكم من بعده قُطُز ، وفي عهده هزمت جيوشه وعلى رأسها الظاهر بيبرس جيوش هولاكو التتري ، وكان ذلك سبباً في التّماع اسم الظاهر ، فولى الحكم ، وفي عهده انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة عام ٦٥٦ للهجرة ، وخلفه سلاطين أشهرهم قلاوون وابنه الناصر ، ويظل الحكم في تلك الأسرة حتى يسلبه منها برقوق زعيم المماليك الجراكسة الذين جلبهم آل قلاوون وأسكنوهم بروج القلعة ، ولذلك سمو المماليك البرجية ، ويخلف برقوق سلاطين مختلفون ، منهم السلطان «شيخ» الملقب بالمؤيد ، وما تزال مصر في أيدي المماليك البرجية حتى يفتحها العثمانيون في عام ٩٢٣ للهجرة .

وكانت مصر في عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامي ، إذ وقفت دون موجة التتار التي اكتسحت شرق هذا العالم حتى الشام ، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام ، وقد انتقل إليها الخليفة العباسي ، وفي هذا الانتقال ما يرمز إلى أهميتها في تلك العصور ، إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف ، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر ، فقد هاجر إليها العلماء والأدباء من كل صوب حتى ينعموا بما فيها من حياة آمنة مرفهة ، ويظهر أن مصر كانت على جانب عظيم من الرخاء واليسر في هذا العصر المملوكي ، ولذلك كثرت فيها العمارة حتى قالوا إنه « بُني في أيام الملك الظاهر ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات »<sup>(١)</sup> وكذلك اشتهر عصر الناصر بن قلاوون بكثرة العمائر في مصر والشام . وفي هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ثروة مصر في هذا الحين ، ولعل مما يدل على ذلك أيضاً ما يقال من أن الناصر حجَّ ذات مرة فكانت تُسمدُّ له مائدة في طريقه وسط حديقة مصنوعة ، وعليها الفاكهة والزهور ، وكان هذا المنظر يبهز الناس في صحراء بلاد العرب ، وقد قالوا إن إحدى زوجاته أنفقت في حجها مائة ألف دينار ، كما قالوا إنه أنفق في زواج كل بنت من بناته ثمانمائة ألف دينار<sup>(٢)</sup> ، وما من ريب في أن ذلك يدل بعض الدلالة على ما بلغته مصر في عصر المماليك من ترف وثراء .

ولعل من الغريب أن المماليك - على الرغم من أنهم كانوا من الرقيق - عُنوا بالحركة العلمية على نحو ما صنع سادتهم من الأيوبيين ، فبنوا المدارس وأغدقوا عليها الأموال ، وكان أول من استنَّ هذه السنة الظاهرُ ببيرس ، فقد أنشأ مدرسة كبيرة هي المدرسة الظاهرية ، وكان لها أربعة إيوانات لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس الحديث وقراءات القرآن ، كما كان بها مكتبة

(١) النجوم الزاهرة ١٩٦/٧ .  
 (٢) تاريخ دولة المماليك في مصر تأليف ص ٩٠ .

تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم<sup>(١)</sup> ، وقد احتذى الظاهر المنصور قلاوون ، فبنى مدرسة كبيرة سميت المدرسة المنصورية ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة ، كما كان يُدرس فيها التفسير والحديث ، وأيضاً كان يُدرس فيها الطب<sup>(٢)</sup> ، ثم جاء الناصر ابن قلاوون فأنشأ مدرسة عظيمة ورتب فيها دروساً للمذاهب الأربعة، ويقول المقرئزي إنه أدرك هذه المدرسة<sup>(٣)</sup> ، وبني السلطان حسن من بعده مدرسة كبيرة ، يقول المقرئزي عنها إنه لا يُعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر قلبها وحسن هندامها وضخامة شكلها ، ويقول إن العمارة استمرت فيها مدة ثلاث سنين لا تنقطع ، وإنه كان يُصرف على عمارتها يومياً عشرون ألف درهم ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة<sup>(٤)</sup> . ثم جاء الماليك البرجية وعلى رأسهم برقوق الذي أنشأ مدرسة لدرس المذاهب الأربعة ودرّس التفسير والحديث وقراءات القرآن<sup>(٥)</sup> ، وتبعه الملك المؤيد شيخ فابنني هو الآخر مدرسة كبيرة<sup>(٦)</sup> . وكل ذلك يدل على مبلغ عناية الماليك بالحركة العلمية وتشجيع العلماء ، وقد عرف المؤيد شيخ من بينهم بأنه كان شاعراً وموسيقياً<sup>(٧)</sup> ، ويقول السيوطي نقلاً عن ابن حجر إنه « كان معه إجازة بصحيح البخاري من شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني » ، فكانت لا تفارقه مفرأ ولا حضراً<sup>(٨)</sup> .

وإذا كان الماليك عُنوا بالحركة العلمية فإنهم عُنوا كذلك بالحركة الأدبية، وقد كان لديوان الإنشاء عندهم منزلة كبيرة ، وكان لا يوظف فيه إلا من اشتهر بالبلاغة ، وأرقى أسرار البيان والفصاحة ، وكثيراً ما ارتقى كاتب

- 
- |                                      |                                     |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| (١) خطط المقرئزي ٣٧٨/٢ وحسن المحاضرة | (٤) حسن المحاضرة ١٦٢/٢ .            |
| ١٦٠/٢ والنجوم الزاهرة ١٢٠/٧ .        | (٥) حسن المحاضرة ١٦٣/٢ .            |
| (٢) خطط المقرئزي ٣٧٩/٢ وحسن المحاضرة | (٦) حسن المحاضرة ١٦٣/٢ .            |
| ١٦٠/٢ .                              | (٧) تاريخ دولة الماليك لمويرص ١٣٢ . |
| (٣) خطط المقرئزي ٣٨٢/٢ وحسن المحاضرة | (٨) حسن المحاضرة ٨٩/٢ .             |
- . ١٦٠/٢

الإنشاء عندهم إلى مرتبة الوزارة . وقد كُتبت في هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العُمري ، و«صبح الأعشى في صناعة داووين الإنشاء» للقلقشندى ، و«نهاية الأرب» للنويزي ، و«الخطط» و«السلوك» للمقرئزي . ولولا هذه الكتب ما استطعنا اليوم أن نؤرخ للحركات الأدبية في مصر أثناء العصور الوسطى ، ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف مخافة ضياع العلم ، إذ فقد كثير من الكتب حتى عصرهم ، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغني عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر ، ومن أهم كتب التاريخ الكبيرة في هذه العصر كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ، وعقد الجُمان للعينى .

وأكثر كتابات هذا العصر ينتشر فيها السجع ، ومن الكتب التاريخية التي بُنيت على السجع بناء كتاب «عجائب المقلور في نوائب تيمور» لابن عرب شاه ، واستمرت كتابات الرسائل في هذا العصر مطبوعة بالطابع الذي رأيناه عند القاضي الفاضل من ميل إلى استخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير ثم الاقتراض من ألفاظ العلوم ومصطلحاتها . ومن أشهر كتّاب هذا العصر ابن فضل الله العمري ، وابن نباتة ، ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أشهر الثلاثة ، وكتاباتهم جميعاً تمتاز باستخدام فنون البديع وألفاظ العلوم ، وعُنوا بعناية خاصة بلون التورية كقول ابن نباتة من توقيع لشخص بنظر مدرسة<sup>(١)</sup> :

«وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان ، وفي مصالح القول والعمل ذو اليدين واللسان ، وذو العزائم الذي تقيّدت في حبه الرتب ومن وجد الإحسان » .

فقد ورى في الناظر والإنسان تورية واضحة ، ولم يكتبف بذلك بل رأيناه يعمد إلى الاقتضاب في آخر العبارة أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالاكْتفاء ، إذ ختم عبارته بقوله «ومن وجد الإحسان» وقطع وهو يريد الشطر المشهور «ومن وجد الإحسان قيّداً تقيّداً» ، وهذا الاكْتفاء إنما جاء من استخدام

أساليب القرآن الكريم لأن فيها حذفاً كثيراً فذهبوا يتأثرونها في هذا الجانب ، ولا تظن أن الاكتفاء ظهر لأول مرة في تلك العصور فهو قديم إذ نجده في العصر الفاطمي عند ابن قادوس <sup>(١)</sup> كما نجده من بعده في العصر الأيوبي <sup>(٢)</sup> ، ونستمر فنجده في هذا العصر عند ابن نباتة وغيره ، وإنه لينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند أشهر كتّاب هذا العصر وهو محيي الدين بن عبد الظاهر حتى تراءى لنا طبيعة الكتابة في العصر المملوكي وما تتسم به من شارات أدبية وسمات فنية .

### محيي الدين بن عبد الظاهر

عاش محيي الدين في القرن السابع الهجري إذ توفي عام ٦٩٢ للهجرة <sup>(٣)</sup> ، وقد ولى ديوان الإنشاء في عهد بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل <sup>(٤)</sup> ، وكان له فضل كبير في وضع مصطلحات ديوان الإنشاء لهذه العصور ، وقد استمر الكتّاب من بعده يلتزمون هذه المصطلحات ، وإن في هذا الالتزام ما يدل على قيمته لدى معاصريه فقد كانوا جميعاً يُشيدون به ، يقول النويري : « كان محيي الدين أجلاً كتاب العصر وفضلاء مصر وأكابر أعيان الدول ، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحسناً ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » <sup>(٥)</sup> ، وإذا رجعنا نبحت هذه الطريقة التي يشير إليها النويري وجدناها هي الطريقة الفاضلية نفسها <sup>(٦)</sup> ، فحجي الدين يستخدم البديع ويتصنع لاصطلاحات العلوم ويكثر من الاقتباس لآي الذكر الحكيم ،

(٤) انظر بدائع الزهور ١١٠/١ وكذلك

١١٨/١ ، ١٢٥/١ .

(٥) نهاية الأرب ٣٠١/٨ .

(٦) فوات الوفيات ٢٧١/١ .

(١) انظر الحريرة ٢٣٠/١ .

(٢) خزانة الأدب للحموي ص ١٢٦ .

(٣) بدائع الزهور ١٢٥/١ . وانظر فوات

الوفيات ٢٧١/١ .

كما يكثر من تضمين الشعر ، ونحن نسوق قطعة من كتاب تعزية كتب به عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يخبره بوفاة ابنه علاء الدين على ، وكان قلاوون عهد له في الأمر من بعده ، ثم أدركته الوفاة (١) :

« المملوك يخدم بخدمة لا يذود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر كارث ، ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ، ويطلع العلم الكريم على ورود مثال كريم ، يتضمن ما كان حدث من رُزء تلافاه الله بتناسيه ، وتوافقى هو والصبر فتولّى التسليم بتبيين عاسيه (٢) ، وتمرين قاسيه ، فشكرنا الله على ما أعطى وحمدناه على ما أخذ ، وما قلنا هذا جزع قد انتبه ، إلا قلنا هذا تثبت قد انتبذ ، ولا توهمنا أن فلذة كبد قد اختطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا والحمد لله فلئذ ، وأحسننا الاحتساب ، ودخلت الملائكة علينا من كل باب ، ووفئانا الله أجر الصابرين بغير حساب . . وبكتاب الله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء نضرب به عن كل رثاء صفحاً ، وما كنا مع الله - والمنة لله - نُعطي لمن يؤنب ويؤبى أذنا . ولنا بحمد الله ذرية درية (٣) ، وعقود . . والشكر لله كلها درية :

إذا سيد منهم خلا قام سيدٌ قَوْلٌ لما قال الكرام فعولٌ

ما منهم إلا من نظرَ سعدَه ومن سعدَه يُنتَظَرُ ، ومن يحسن أن يكون المبتدا ، وأن تسُدَّ حاله بكفالاته وكفايته مسدَّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) لاسياً من الدينُ به إذ هو صلاحُه أعرف ، ومن قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعد أشرف . . والرغبة إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمة ، وكما لم يجعلها للظهور فاصمة ، فلا يجعلها لعراً الشكر فاصمة ، وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم

(١) صبح الأعشى ٣٥٧/٧ . ونهاية الأرب (٣) درية : نسبة إلى الدر وهو اللبن ، يريد أنه أشبه أباه وأمه في الأخلاق والصفات . ١٠٧/٨ .

(٢) من عسى الليل : اشتدت ظلمته .

وفصاله على عليه فاطمة، وأن يُحَسَّبَ إلينا كل ما يُلْهِى عن الأموال والأولاد من غزو وجهاد، وأن لا تقصف أرواحنا إلا في فؤود أو في فؤاد، ولا تُجَزَّ غير شعور ملوك التتار تُتَوَّج بها رؤوس الرماح ويصعدُ بها على قمم الصعادات<sup>(١)</sup> ولا شغل الله لُبَّ المولى بفادحة ولا خاطرة بسائحة من الحزن ولا بارحة، ولا أسمعها بغير المسرات من هواتف الإبهاج صادحة .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت للقارئ طريقة محي الدين، وهي طريقة تقوم على التصنع وهو تصنع ينتهي به إلى أن يكثر من الجناس المعكوس، وهو لا يكتفى بهذا الجناس وما فيه من مشقة، بل نراه يذهب مذهباً بعيداً في استخدام التورية، وقد كان يستهدف لها في جميع كتاباته إذ كانت أهم لون شُغِفَ به الكتاب في عصره، وكانوا يدنون بها على مهارة الكاتب وبراعته، وقد ورَّى محي الدين في هذه القطعة مرتين مرة في قوله: «ومن قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف»، فإن كلمة أشرف هنا لا يريد بها معنى الصفة، وإنما يريد بها الإشارة إلى ولي العهد الجديد لقلاوون بعد وفاة علي الملقب بعلاء الدين، وهو الملك الأشرف خليل، ونستمر فنجده يورِّى مرة أخرى في قوله: «وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله على عليه فاطمة» فقد جاء بفاطمة مع على وهو يريد هنا الصفة. وواضح أنه ذكر هنا الفصال حين ذكر الحمل كما ذكر فاطمة حين ذكر علياً، وهو ما يسمى عند أصحاب البديع بمراعاة النظير. وليس هذا كل ما في القطعة من تصنع، ففيها اقتباس واسع من آي الذكر الحكيم، وفيها أيضاً تضمين للشعر، تارة يضمن بيتاً، وتارة يضمن شطراً في مثل قوله: (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر)، وأيضاً في القطعة تصنع لذكر المبتدأ والخبر. رأيت كيف تؤلّف الرسائل عند أشهر كتاب العصر المملوكي؟ لأنها تؤلف من ألوان البديع واصطلاحات العلوم وتضمين الأبيات والأشعار والاقتباس من آي الذكر

(١) الصماد: جمع صعدة وهي القناة التي

تبيت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف.

الحكيم ، وقد أصبحت هذه الأشياء تلصق إصافاً وتلفق تلفيقاً ، فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون في نثره يقتصرها اقتساراً وقد يعتسفها اعتسافاً ، وانظر كيف يحتلب محيي الدين التورية اجتلاباً في أثناء عهد المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، إذ يقول (١) : « كم جلا بهي جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن رؤاه ويمن آراهه يتهم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم عطاش ولا يُنكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم » .

فقد ورى في أبراهيم ، وأهل لتوريته بذكر الخليل وهو لا يريد أبراهيم حقاً إنما يريد أنه « أبراهيم » فسهل الهمزة لتم له التورية . ومن يرجع إلى رسائله المنتورة في صبح الأعشى يجد كثيراً من تورياته فمن ذلك قوله في كتاب يصف به فتوح قلاوون في الشام (٢) :

كم شكت منه حماة تُسبى بنكرها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مَعْرَةٌ  
وما من مَعْرَةٌ خاف ، ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكومن  
جور جواره تلك الحصون والصباصي ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاده  
مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي .

فقد ورى في كلمة معرة كما ورى في كلمة العاصي إذ يريد بها النهر المعروف في الشام لا الصفة ، ومثل ذلك قوله في كتاب لأحد ملوك الفرنج : « وكيف فارقت بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية » (٣) ، فقد ورى تورية واضحة في ماشية وجارية . ومن ذلك أنه استهدف للقب قلاوون وهو المنصور ولقب الخليفة العباسي في عهده وهو الحاكم فقال في كتاب له : « وكيف لا والمنصور هو الحاكم » (٤) ومن ذلك قوله في نسخة توقيع برياسة اليهود (٥) :

(٤) نفس المصدر ١١٧/١٠ .

(٥) نفس المصدر ٣٨٧/١١ .

(١) صبح الأعشى ١٦٨/١٠ .

(٢) نفس المصدر ٣٥٥/٧ .

(٣) صبح الأعشى ٣٠٠/٨ .

« وليتق الله فيما يتدره ويأتيه ، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلابها تأتية ، وإياه والتية ، حتى لا يقال كأنه بعد لم يخرج من التية . . . وجماعة القرائين ، فانصب لأمرهم من لم يتوله حين يتوله . . . والخزية فهي للمناكم وأولادكم عطية ، وعلى دفاعها لا دافعها وصمة . . . ومن قصد منها خلاصه ، فقل له في الملاء ماذا خلاصه » .

وواضح أنه ورى في التية الثانية فلم يرد بها الصفة وإنما أشار بها إلى التية الذي ضلّ فيه اليهود قديماً مع موسى ، واستمرّ فورى في تولّه الثانية كما ورى في كلمة خلاصه الثانية وهي مركبة من « خلا » وكلمة « صه » بمعنى أسكت . وهذا كله كان يعتبر منتهى ما وصل إليه الفن في عصر محيي الدين من مهارة وبراعة ، وهي براعة لفظية على نحو ما نرى في هذه الأمثلة . وإذا تركت هذه التورية لم نجد إلا صوراً متكلفة وجناساً معكوساً ولن نجد وراء ذلك إلا تكلفاً لمراعاة النظير وتضميناً للشعر وآى الذكر الحكيم ، وإن سألت عن جديد فلن نجد إلا التصنع لمصطلحات العلوم وخاصة علم النحو كقوله في رسالة لوزير بتقليد الوزارة في أثناء كلامه عما نيط به : « وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكُتّابها وحُسابها ، وإليه التولية والصرف ، وإلى تقدّمه البدلُ والنعمة والتوكيد والعطف »<sup>(١)</sup> ويقول في مطلع إحدى رسائله :

« نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر ، وداركت بالبحر وباركت في النهر ، وأجملت المبتدأ وأحسنّت الخبر »<sup>(٢)</sup> . وهناك رسالة ذكرها له القلقشندي وقد بناها كلها على التصنع لاصطلاحات النحو ، وهو يستهلها على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

« حرس الله نعمة مولاي ! ولا زال ككليم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يُرَحِّم وأحمد عيشه لا ينصرف . . . ولا عَدِمَت نُحَاةُ الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ،

(٣) نفس المصدر ١/١٧٦ .

(١) صبح الأعشى ١١/٢٧٣ .

(٢) نفس المصدر ١٠/١٧٣ .

ولا خاطبت الأيام مُلْتَمِسَةً إلا بلام التوكيد ولا عدوّه إلا بلام الجحود . هذه  
المفاوضة إليه - أعزه الله - تُفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلا غدا به  
منتصباً للمكاييد ، ومعتلاً وليس موصولاً كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا  
لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوت  
صحبته تكررت فجاز قَطْعُهَا بسبب ذلك التكرير . . وكان الظن أن الأشغال  
التي جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليماً  
على وصول ، لأنه في الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه ، والحرف ليست  
له علامة ، وحاش لله أن يصبح مُعْرَبٌ إحسانه مَبْنِيّاً .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من التصنع لمصطلحات النحو وكان الكاتب  
يريد أن يسلك كل ما يعرفه من هذه المصطلحات في كتابه ، ونعجب نحن  
الآن من هذا التصنع الثقيل ، ولكنه كان بدعة العصور الوسطى ، وإنه  
ليطوى في داخله مدى ما أصاب الكتابة من جمود وتبلور في هذه العصور  
فإذا الكتاب لا يعنون بأساليبهم إلا هذه العناية التي تجعلهم يسلكون  
اصطلاحات العلوم في كتاباتهم ، فإن تركوا ذلك فإلى الاقتباس من آى  
الذكر الحكيم وتضمين الأشعار والأمثال ، وهم دائماً يوشون كلامهم بفنون  
البديع وخاصة فن التورية . ومن العبث أن نبحث بعد ذلك عن شيء طريف  
يمكن أن نضيفه إلى عصر الماليك ، فقد كان كتابه مقلدين تقليداً شديداً  
لفن القاضى الفاضل وما سبق أن رأينا عنده من تصنع وتعقيد ، ولم يستطيعوا  
أن يتحدثوا من جديد ، سوى أن يغرقوا إلى آذانهم في هذه الأشكال البديعية  
والعلمية . ومن الحق أن نلاحظ أن البديع لم يَعدْ يؤدي عندهم معنى التحسين  
في صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التي كنا نألفها وأصبح عندهم تليفاً  
وتلزيقاً ، فالكتاب بتصيد في رسالته تورية أو جناساً معكوساً أو اصطلاحاً  
علمياً ليبدل على مهارته ، ومما لا ريب فيه أن ذلك كان يفتن الأدباء حينئذ ،  
وهي فتنة جعلت النثر العربي عملاً لفظياً يعنى فيه بالزخرف والتنميق ، لا بالمعاني  
ولما يتصل بالمعاني من فكر دقيق . وهذا كل ما عند القوم : تصنع وتلفيق  
الفن ومذاجه

وتلزيق . وما نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نحس بأن الأساليب في النثر قد تجمدت وتبلورت ، أو هي تريد أن تتجمد وتبلور إلا أن تصبها رجة شديدة تغير أوضاعها ، ولكن مصر لم يتح لها شيء من ذلك ، إنما أتيح لها ظلام مطبق ، فقد فتحتها العمانيون واستقروا فيها بعد أن قوضوا الحكم المملوكي وأدالوا منه ، فاستولى على الكتابة الفنية جمود شديد ؛ وأصبحنا لا نكاد نجد كاتباً مهماً يمكن أن نقرنه حتى إلى كتاب المماليك .

## ٧

## العصر العثماني والعقم والجمود

كان من سوء حظ مصر أن اشتبك المماليك في حروب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحاً عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . وبذلك أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ولم يعد لها نفوذ في سوريا وبلاد العرب ؛ بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية ، واستمر شأنها كذلك حتى غزاها نابليون عام ١٧٩٨ للميلاد . وما من ريب في أن هذا الطور من حياة مصر يعتبر أسوأ الأطوار التي مرت بها ، فقد عمها ظلام كئيب وانتشر فيها جو خائف ، إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة ؛ بعد أن كانت دولة كبيرة . ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن في التاريخ والسياسة ، أما إذا أصبحت مغلوقة على أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تعطل : وماذا تنتظر من شعب يفقد السيادة على جيرانه بل على نفسه ؟ لا شك أنه يكتئب ، وينكمش منزوياً في جُدر وطنه با كياً نفسه وتاريخه ولعل ذلك ما جعل المصريين يرثون المماليك رثاء حاراً<sup>(١)</sup> بل لقد رثوا وطنهم رثاء مُرّاً<sup>(٢)</sup> ، وحتى لهم ، فقد بطش بهم

(١) بدائع الزهور لابن إياس ١١١/٣ . (٢) نفس المصدر ١٢٨/٤ .

العثمانيون وأخرجوهم من عزّ إلى ذل ، لا من حيث السياسة فقط ، بل أيضاً من حيث العلم والفن ، إذ أخذ سليم الأول معه كثيراً من العلماء والأدباء والمهندسين وأصحاب الحرف وأدوات الترف<sup>(١)</sup> ، ولماذا يبقى هؤلاء في مصر ؟ لقد انتهى عصر المماليك ولم تعد هناك حاجة لفن ولالصناعة ، فليذهب أربابهما إلى القسطنطينية ، وليذهب معهم العلماء ورجال الفكر ، ولتذهب الكتب والمجلدات التي تعتزّ بها مصر أيضاً حتى تفقد مصر كل ما لها من سيادة عقلية وفنية بجانب ما فقدته من سيادتها السياسية .

لم تعد مصر بلداً عظيماً ، كما كان شأنها في عصر المماليك إذ كانت بها الخلافة ، وكانت لها السيادة على جيرانها ، وكان لها في داخلها نشاط عقلي وفني واسع . أما في هذا العصر فقد أصبحت ولاية عثمانية يقيم فيها وال تركي ، وهذا الوالى له ديوان ، ولكن اللغة الرسمية في هذا الديوان هي التركية التي يتخاطبون بها مع الباب العالي . ومعنى ذلك أن الدواوين التي كانت تُخرج كبار الكتاب في العصور السابقة قد أغلقت أبوابها ، فلم يعد هناك مجال لأن يظهر مثل ابن الشخياء أو القاضي الفاضل أو محيي الدين بن عبد الظاهر .

واقراً في الآثار الكتابية أثناء العصر العثماني فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تُقَرَّنَ إلى أي عصر من العصور السابقة ، وبون بعيد جداً بين كتاب مثل «بدائع الزهور» في التاريخ وكتاب آخر مماثل له في عصر المماليك، فأنت لا تجد عند المقرئ ولا ابن تغري بردي ركاكة ولا أخطاء نحوية ولا أخرى لغوية كما لا تجد ألفاظاً تركية ، أما عند ابن إياس فإنك تجد ضعف التأليف عامة ، فالأسلوب واه ، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية منتشرة . وإذا تركت هذا الجانب من الكتابة التاريخية إلى الكتابة الفنية وجدتها تليقاً خالصاً من أساليب السابقين ، وهو تليق ليس فيه جديد إلا التصنع الشديد لألوان البديع ومصطلحات العلوم . وقد كانت هذه الأشياء توجد في عصر

(١) ابن إياس ١٤٧/٣ .

الممالك فتقبل ، لأن الأسلوب كان جزلاً رصيناً فيستطيع القيام بها ، أما في هذا العصر فالأسلوب واه ضعيف لا يكاد يقوم ، ولعل ذلك ما جعل الشهاب الخفاجي يقول في مقدمة كتابه « ريحانة الألباء » : « إن الأدب في هذه الأعصار ، قد هبت على رياضه ريح ذات إعصار ، حتى أخلقت عررى المحامد ، واسترختي في جترية عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، ونخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رسم الكرام ، فعليه مني السلام »<sup>(١)</sup> ، وامض في ريحانة الألباء فستجد صاحبها يتصنع لمصطلحات النحو كما يتصنع لألوان البديع ، وما نزال في أساليب غثة حتى نؤفي على آخر الكتاب فإذا صاحبه يؤلف مقامات كلها مأخوذة من مقامات الحريري بألفاظها ومعانيها وأساليبها ، ونحن لا نتلومه كما تلوم هوسرى الدين بن الصائغ « لمكاتبات معسولة الألفاظ مدتسة المعاني جرت بينه وبين ابن نُجَيم وأكثرها من رسالة ابن زيدون منحولة المبانى »<sup>(٢)</sup> فإن هذه كانت طاقة العصر ، إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار ، فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين ، فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً فيما يمكن أن نُعنى به ، فقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جموداً ، بل قل لقد تحجرت تحجراً ، إذ أجلبت الحياة الفنية ، وأصبحت مواتاً خالصاً أو ما يشبه الموات ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو تدب فيها الحركة ، إلا إذا تضافرت جهود هائلة حتى تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلى عالم جديد مشرق ، فيه نور ، وفيه حياة ، وفيه بعث وأمل وابتسام .

(١) ريحانة الألباء طبع الآستانة ص ٤ .

(٢) ريحانة الألباء ص ٢٨١ .

## خاتمة

١

### الصورة العامة للبحث

رأينا النثر العربي في العصر الجاهلي محدود الموضوعات ، فهو لا يتجاوز الخطابة والأمثال وسجع الكهان ، وقد وفر له أصحابه حينئذ ضروبا من الجهد الفني اصطلاحنا على تسميتها باسم الصنعة . ولما خرجنا من الجاهلية إلى الإسلام وجدنا سجع الكهان يخنق أو يكاد ، بينما تتسع الخطابة وتتنوع تحت تأثير الحوادث الدينية والسياسية . وقد أخذ يظهر بجانب الخطابة نوع جديد لم يكن العرب يعهدونه في العصر الجاهلي ، وهو الكتابة الفنية ، وتبعتها نشأة هذا النوع ووضحنا كيف أن الحياة العربية نفسها وما أحدث الإسلام فيها من انقلاب هي التي هيأت لظهوره وتطوره ، وبيئنا كيف أن العناصر الأجنبية أخذت تؤثر فيه ، وما زال ينمو ويرق ، حتى تمت له صورته النهائية في دواوين هشام ابن عبد الملك ، تلك الصورة التي عبر عنها - فيما بعد - عبد الحميد الكاتب أجمل تعبير .

ولما انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا طائفة من الأدباء تُعنى بالكتابة الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالكتب ، وبدأت هذه العناية أولا عن طريق الترجمة على نحو ما كان من ابن المقفع وترجمته لبعض الكتب الفارسية ، ثم أخذ الأدباء بعده يحدثون ما يشبه هذه الكتب ، فظهرت الرسائل الطويلة عند سهل بن هرون وبالحاظ . ولاحظنا أن هؤلاء الأدباء أصحاب الكتابات الطويلة كان شأنهم شأن كتّاب الدواوين في العصر الأموي ، فهل يخضعون في نماذجهم لطاقة محدودة من الفن هي طاقة الصنعة والتكلف المحدود . ونحن لا نترك هذه الطائفة في العصر العباسي إلى كتّاب الدواوين حتى

نجدهم يعنون بحرفة الكتابة عناية بالغة ، وهي عناية كانت تقوم على الزخرف والتنميق ، حتى تتحول كتبهم السياسية إلى وشى وحللى خالصين . وما زالت هذه العناية تتكامل حتى كان مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعتمد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى ، وأستاذ هذا المذهب - غير مدافع - هو ابن العميد فهو الذى وسّع - لأول مرة - طاقة الزخرف فى تعبير النثر وتحجيره ، وخلفته جماعة أوفت بهذا المذهب إلى الغاية التى كانت تنتظره فإذا كتابتهم زركشة خالصة وما يطوى فى هذه الزركشة من تطريرز بالسجع وترصيع بالبديع . ونستمر حتى أواخر القرن الرابع فإذا الحضارة العربية تتحول إلى فنون من التعقيد فى جميع جوانبها ، ولم يشذ النثر عن هذه الحال ، فقد رأينا بتعدد معتدلاً أتاح لظهور مذهب جديد فى النثر العربى ، وهو مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضرورياً مختلفة من التعقيد ، وحقق أبو العلاء لهذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب ، وتبعه الكتّاب من أمثال الحريرى والحصكى بمحاولون - بكل ما فى وسعهم من جهد - أن يضيفوا عقداً جديدة إلى عقد أبى العلاء كأنما التعقيد غاية فى ذاته ! واستمر هذا المذهب مسيطراً فى المشرق فلم يخرج بعده مذهب جديد ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تعطلت الأداة العباسية التى كانت تُخرج المذاهب ، فلم يعد هناك إلا الجمود والتحجر الشديد .

وهذه هى موجات الفن أو الصناعة فى تاريخ نثرنا العربى ، وقد ذهبُ أتباع هذه الموجات فى أهم الأقاليم العربية وأقصد الأندلس ومصر فوجدتُهما تعيشان على تقليد المشرق دون أن تحاول إحداهما أن تحدث توجيهاً جديداً ، فقد كان التقليد يعم الأقاليم المختلفة ، وهو تقليد قام على محاكاة النماذج المشرقية فى صور من الاضطراب والاختلاط ، إذ نرى الكتّاب يجمعون فى نماذجهم بين صور المذاهب المختلفة ، وقلما وجدنا من يعيش فى مذهب واحد . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبّرا عن شخصيتهما فى أدبهما بل لقد عبّرتا عنها من حين إلى حين ، ولكن فى شكل شاحب ضئيل .

## النثر المصرى الحديث

استطاعت مصر فى العصر الحديث أن تنهض نهضة واسعة فى النثر العربى ، وقد بدأت هذه النهضة فى القرن التاسع عشر منذ أرسلت البعث إلى أوروبا ، فإن هذه البعث لما رجعت أخذت تفكر فى إدخال بعض ما تعرفت عليه من الآداب الأوربية ، فظهرت فكرة الترجمة ، وبدأت هذه الترجمة مقيدة على نحو ما نعرف عند رفاة الطهطاوى فى ترجمته «تليماك» ، فإن من يرجع إلى هذه الترجمة يجدها مقيدة بالسجع المتكرر القوافى ، كما يجدها مقيدة بالبديع ، وهو أسلوب لا يختلف كثيراً عما ألفناه فى العصر الأيوبى وما بعده من أساليب . ولكننا لا نتقدم إلى النصف الثانى من القرن الماضى حتى نجد تحولاً واسعاً يحدث فى النثر المصرى وصياغته ، إذ ملّ الكتاب زىّ السجع والبديع ، وهو ملل يرجع فى الواقع - إلى أن الذين تعلموا فى أوروبا ثم عادوا وأرادوا أن يعبروا فى لغتهم عما تعلموه وجدوا هذه اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما فى نفوسهم وعقولهم من معانٍ بسبب ما صارت إليه من التحجر فى أساليب السجع والبديع . حينئذ فكرت هذه الجماعة أن تهجر هذا الزىّ القديم إلى زى أكثر ملاءمة لمعانيها وما تريد التعبير عنه ، وساعدها على ذلك أن مطبعة بولاق أخذت تخرج كتباً لأعلام العباسيين الأوّل من مثل كتاب كليلة ودمنة ، وليس فيها سجع ولا بديع . وبالغ نفر من هذه الجماعة فدعوا إلى تبسّد اللغة العربية جملة ، وأن يستخدم المصريون مكانها اللغة العامية على نحو ما نعرف عند عثمان جلال . وسرعان ما اصطدمت هذه الجماعة المجددة التى تعلمت فى أوروبا بجماعة محافظة لم تذهب إلى أوروبا بل اكتفت بما تعلمته فى الأزهر ، وبما عرفته من صياغة السجع والبديع الشائعة ، فنشرت من آراء الجماعة الأولى ودعوتها التى عمدت بها خروجا على التقاليد وانها كآ حرمتها المقدسة .

وفي أثناء ذلك نفذ على مصر جموع من الشام ، إما فراراً من الحكم العثماني وما كان ينطوى فيه من ظلم ، وإما ابتغاء للنجاح الأدبي في مصر ، وكانت هذه الجموع تتأثر بالأدب الأوروبية أوسع مما تتأثر بها مصر ، وذهب فريق منها إلى أمريكا وأنشأوا صحفاً ومجلات هناك ، وهم جماعة أدباء المهاجر الأمريكي الذين امتازوا بثورة واسعة على اللغة العربية وأصولها .

ونرى من ذلك أن مصر كان بها في أواخر القرن التاسع عشر أربع طوائف ، وهي طائفة الأزهريين المحافظين ، ثم طائفة المجددين المعتدلين الذين يريدون أن يعبروا بالعربية دون استخدام سجع وبديع ، وطائفة المفرطين في التجديد الذين يدعون إلى استخدام اللغة العامية ، ثم طائفة الشاميين ، وكانت في صف الطائفة الثانية ، وما تزال المعارك تشتد بين الطائفة الأولى والطوائف الأخرى حتى تنتصر طائفة المجددين المعتدلين ، فيعدل المصريون في كتابتهم إلى التعبير بعبارة عربية صحيحة لا تعتمد على زينة من سجع وبديع ، وإنما تعتمد على المعاني ودقتها على نحو ما نرى في ترجمات فتحي زغلول وكتب قاسم أمين . وهكذا أتبع لمصر أن تخرج من هذه المعارك التي أقامت فيها لأواخر القرن التاسع عشر حول صياغة النثر بظفر محقق ، إذ اعتمدت على اللغة العربية الصحيحة الحرة الحالية من قيود السجع والبديع واتخذتها أداة للسانها في كتاباتها. أما العامية فسرعان ما خرجت من بيئة الأدب والأدباء إلى بيئة الفكاهة وصحافتها الهزلية ، فظلت تعيش فيها حتى عصرنا الحاضر ، وأما كتابة السجع والبديع فقد انحازت عن الكتابات الأدبية وإن ظلت تظهر - من آن إلى آخر - على نحو ما نعرف في «حديث عيسى بن هشام» ولكن الناس ينصرفون عنها تدريجياً ليمكن أن يقال : إنه لا يوجد في عصرنا الحاضر من يتشبع لهذه الصياغة أو يعنى بها عناية لها قيمة في أعماله وآثاره ، وربما كانت الصحف من أهم الأسباب التي أعدت لموت البديع والسجع ، فإن كتّاب الصحف مضطرون اضطراراً إلى أن يخاطبوا أوسع مجموعة ، وهذا لا يستقيم لهم مع اللغة المقيدة لأن الذي يفهمها قليلون ، من أجل ذلك عمد أدباء الصحف إلى هجر هذه اللغة المنمقة واعتبروها لغة

بالية ، بل قل لغة ميتة ، لا تصلح للحديث ولا لكتابة ، إذا أريد بالكتابة أن يفهمها الناس . ونحن لا نبعد إذا قلنا إن هذه الجماعة من أدبائنا المحدثين هي التي قضت نهائياً على السجع وأزيائه من بديع وغير بديع ، فتحت أيديها ثمَّ هذا التحول نهائياً ، وأصبح الناس لا يكادون يلتفتون إلى من يفرع إلى أساليب البديع والترصيع ، إذ يعتبرونه منفصلاً عنهم وقلما فكروا فيه أو شعروا به .

## ٣

## بين القديم والحديث

من يتابع نهضة النثر المصرى بعد القرن التاسع عشر يلاحظ أن الصراع بين المحافظين والمجددين يستمر ، ولكن دائماً ترجح كفة المجددين ، وأتاحت لهم الثورة المصرية التي قامت عام ١٩١٩ م أن ينتصروا انتصاراً مؤزراً على إخوانهم من المحافظين ، فقد ثار الناس على قديمهم في السياسة وثار الأدباء على قديمهم في الأدب ، وأصبحت لا تجد صوتاً يرتفع بالنصرة لفكرة السجع فضلاً عن فكرة البديع . واعدت هذه الحال لهضة واسعة في النثر المصرى الحديث ، فإن من يرجع إلى مكتبتنا الحاضرة يُشرف على اتساع ما احتوته من ترجمات عن الآداب الأوروبية ، وكذلك ما احتوته من أعمال أدبية صنعها طائفة من كتابنا وأدبائنا على غرار ما يصنع الأوروبيون أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية . ومعنى ذلك أن مصر الآن تعيش في عصر يعتمد على النقل الواسع من أوروبا كما يعتمد على إحداث نماذج أدبية ممتازة في عالم المقالة والقصة والمسرحية . وقد أخذ الأوروبيون أنفسهم يتصلون بما يصدره أدباء مصر من قصص فترجموه إلى لغاتهم المختلفة ، وبذلك كادت الدورة بين مصر وأوروبا أن تتم ، فمصر تأخذ الآن وتعطى .

وهذا المركز الممتاز للنثر المصرى الحديث جعل مصر تتزعم البلاد العربية

في الحركات الأدبية ، فهي الآن تقوم منها مقام الدقة والمجداف في السفينة ، فهي التي توجه ، وهي التي تثير وتدفع ، ولا يقتصر الأمر على النشر الأدبي الخالص من القصص وما يتصل بها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى البحوث الأدبية وما تخرجه مصر في النقد الأدبي ، بل حتى ما تخرجه من مجلات وصحف فصحتها وآثارها تُقرأ في الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية . وكان يحسن — بجانب ذلك — أن تهتم مصر بما تنتجه هذه البلدان ، ولكن هذا الاهتمام الآن قاصر ، فأنت لا تكاد تجد شيئاً عندنا لمجموعة أدباء العراق والشام وهم كثيرون ، وبينهم الممتازون الذين يحسن أن تقرأ آثارهم ، ومع ذلك فقلما تجد من يعنى بهم بيننا ، وكأنما شغل المصريين استيراد النماذج الأوروبية وألهاهم ذلك عن الاهتمام بنماذج إخوانهم في البلدان العربية .

ومهما يكن فإن مصر تنبعت فيها الآن نهضة أدبية واسعة ، وإنها لأوسع من أن نعرض لها في هذه الخاتمة القصيرة بشيء من الاستيعاب والتفصيل . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه النهضة يطبعها طابع من السرعة في الإنتاج الأدبي ، وخاصة عند كتاب الصحف المحترفين ، وقد أثرت — إلى حد ما — هذه السرعة على الصياغة الفنية للنثر المصري ، إذ باعدت بين صناعته وبين ما كنا نألفه قديماً من التجبير والتجويد . وحقاً إن كتاب مصر وفقوا في إبعاد السجع والبديع عن النثر ، ولكن بعضاً منهم تطرفوا في عدم العناية بأساليبهم وتنقيح عباراتهم ، ولذلك كنت تعثر في آثار هذه الطائفة على أساليب لم تصقل ولم تجود ، وأيضاً قد تعثر على أساليب كثيرة نقلت نقلاً من اللغات الأوروبية . ومن المحقق أن هذه السرعة ترجع — في أغلب جوانبها — إلى العامل التجاري ، فالأديب يخرج الأثر الأدبي ، ثم يرى أنه لو تأتى ما استطاع أن يظفر بريح آخر إلا بعد مدد طويلة ، فهو يعدل عن التأني والتأمل ويتعجل في إصدار آثاره ، غير مهتم بالتجويد الواسع . وقد يكون من دوافع ذلك أن الجمهور القارئ لا يعرف التجويد الفني منه إلا الأقلون عدداً ، فيعتمد بعض الكتاب على ذلك ويخرجون آثارهم من قصص وغير

قصص من غير تحبير أو افتنان في التحبير . وبون بعيد جداً بين الطبقة التي كان يُخرج لها أدباء العرب في العصور السابقة أعمالهم وبين الطبقة الحاضرة التي تمخّرج لها الآن تلك النماذج ، فالطبقة الأولى كانت محدودة بالخليفة أو الأمير وحاشيته وما حوله من أدباء ممتازين وعلماء وفلاسفة ، من أجل ذلك كان الكاتب يحوّد آثاره منتهى ما يمكن من تجويد . أما في هذا العصر فالطبقة التي يوجه لها الكتاب أعمالهم طبقة واسعة من الجمهور ، وأكثر هذه الطبقة حظه من الثقافة العامة – فضلاً عن الثقافة الأدبية – ضئيل ومحدود، ولذلك كان يتقبّل كل ما يقدم له . وترى طائفة من الكتاب في الجمهور هذه الخاصة فلا تربيّت ، بل تتعجل ، وتدفعها هذه العجلة إلى إهمال أساليبها إهمالاً من شأنه أن يسقط في أثنائه كثير من العيوب التي ينبغي أن لا تعتور الأثر الأدبي الممتاز . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة للنثر العربي ومذاهبه في مختلف عصوره وأقاليمه فاتحة لعناية كتابنا بأعمال أسلافهم وتراث آبائهم ، وأن يدفعهم ذلك إلى الصقل والتحبير حتى يحققوا لآثارهم ما يريدون لها من البقاء والخلود .